

مصطفى محمود



تم تحميل الكتاب من المكتبة العربية :
www.TipsClub.com

من أمريكا إلى
الشاطئ الآخر



دار المعارف

مكتبة

الكتاب الثاني في تاريخ الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

أمريكا.. أمريكا

الناشر : دار المعارف - ١٩٩٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
مطبعة

توتر . . انتظار . . لحظة . . فصول ؟ ماذا حدث ؟

برقية من مركز المراقبة الفضائي يعلن عن إصلاح العطب في كاميرات السفينة . . ويقول إن السفينة الآن تركت زحل بسلام وهي ترتحل في الفضاء بسرعة خمسين ألف كيلومتر / ساعة في طريقها إلى الكوكب العظيم أورانوس لتصل إليه بعد خمس سنوات . . ثم بعد ثلاث سنوات أخرى إلى نبتون . .

من زحل . .

عقول إلكترونية متخصصة تعيد تركيب الشفرة وتحولها إلى صور ملونة . .

حلقات زحل المضبوطة ليست عشرات بل مئات . . وهي عبارة عن حصوات ثلجية معلقة . . آلاف الملايين من هذه الحصوات المختلفة الأحجام والأشكال تدور في أحزمة متباعدة يمكن أن تتخللها السفينة الفضائية أثناء سيرها دون أن تصاب بسوء . . وليست كل هذه الحلقات مستديرة . . وإنما بعضها بيضاوي . . وبعضها يدور صاعداً هابطاً في مدار حلزوني . . وبعضها يلتف مع الحلقات المجاورة في صفائف . . وبعضها غير كامل وتتخلله الفجوات في مناطق . . الغاز . . وهناك خير أعجب . . أحداً أقمار زحل (غيبرون) يدور

بالقلوب . . والتفسير مجهول . . بعض العلماء يقول إن هذا القمر تلقى ضربة على رأسه من قمر آخر منذ مائة مليون سنة قلبت وضعه في الفضاء . . ومنذ هذا الحين وهو يدور في هذا الوضع العجيب . . مناقشات حول سطح زحل . . وهل هو غازي أو سائل أو صلب . . وعن جو زحل وغازاته . . وعن درجة حرارة الكوكب ومجاله المغناطيسي . .

علماء الفضاء أمام الكاميرات التليفزيونية في مناقشات جادة يقطعها بين حين وآخر إعلان عن بنطلونات الجيتز . .

المناقشات مستمرة . . وما زال زحل لغزاً . . والمعلومات الجديدة حولت السؤال إلى ألف سؤال . .

العلماء يبحثون عن إجابات . .

وبفضل الطبيب وبوليصة التأمين وجوب منع الحمل والأدوات
الكهربائية التي تقوم بالكس والغسل والطهور - نجد الزوجة في حالة
صحة جيدة وفراغ قاتل . تخمق في المسلمات الجنسية في
التلفزيون . والزوج تمتد حياته إلى أرذل العمر . . والعلاقة الزوجية
تتحول إلى شيء فاتر محل لا يطاق . والزوجة تفتح على نفسها مشاكل
لا حل لها .

الجمعة - نيويورك - ٢٨ أغسطس :

في حديث تلفيزيوني حول المرأة ومشاكلها . . قالت المتحدثة في
صراحة عجيبة إن إحدى مشكلات المرأة حينما تتقدم في السن أنها
تزداد رغبة في الجنس . وتصل رغبتها إلى الذروة بعد الستين . . ولكن
للأسف في مثل تلك السن لا تجد المرأة من يقبل عليها من الرجال .
فالزوج انتهى من زمان . . وأقرانها في السن من الرجال يفضلون بنات
الـ ١٦ . . ويجيب الرجل معلقاً على ملاحظتها أن أمثال هذه المشاكل لم
تكن تثار في الماضي . لأن العلاقات الزوجية لم تكن تنحطى
الأربعين . . فالزوج كان في العادة يموت بالسكتة في البورصة . أو كان
يموت مقتولا في حقول تكساس . أو كان يموت بالحمى أو الوباء أو
الحمر الرديئة . . وكان يترك في عتق زوجته جيشاً من الأطفال يشغلها
عن أي شيء آخر يمكن أن تفكر فيه . . ولكن الآن - لسوء الحظ

وتدهش كيف اجتمع كل هذا العلم مع الخرافة . وكيف اجتمع
في وقت واحد أحدث ما ابتكرته أذهان العصر من علوم الذرة
والكهرباء والقضاء والإلكترونيات مع الشعوذة والسحر والأشباح
والتنجيم والفتجان والكف .

المسبب - نيويورك - ٢٩ أغسطس :

الشارع هنا يشبه شريط فيلم يدور بسرعة . . وبرغم الحرارة
الشديدة والرطوبة العالية فالكل يجرى . وإيقاع الحياة يهول . . وكل
واحد ينهب الطريق ليلحق بشيء . . . واليوم هنا يحتوى مجموع نشاط
شهر بخطوتنا الهينة المليئة البطيئة . . والبنائات الجديدة تشق طريقها إلى
السماء لتنتطح السحاب في أيام معدودة . . والميكنة والتكنولوجيا
والكمبيوتر والأضرار توجه كل شيء . . والشركات الصناعية الخاصة
تبني المدارس وترصف الطرق وتشيئ المستشفيات وتبنى السكك
الحديدية وتضع خطوط المترو على حسابها . . ولكنك بعد هذا تقف
مذهولا في « الأسانسير » الصاعد إلى الدور المائة فلا تجد الرقم ١٣ .
لأن صاحب ناطحة السحاب يتشاءم من رقم ١٣ . لهذا ترك نخانة الـ
١٣ خالية .

ومن قبل ذلك بساعات كنت في السيرك أشاهد قروود الشمبانزى
المدربة . تركب البسكليتات وتجرى بقباقيب الانزلاق . . . وكنت أرى
السباع والنمور المفترسة تلحق خد مدربيها في خضوع .

وعجبت أشد العجب للإنسان الذى ساد مملكة الحيوان كلها
وأخضعها لأمره وإشارته . كيف لم يستطع أن يخضع الحيوان
بداخلة ٢٢

إنه لا شك يستطيع بدليل ما أرى أمامي . . .
ولكنه هذه المرة لا يريد . . . فقد اختار أن يترك حيوانه الخاص
على سجيته ليلعب معه لعبة اللذة . . .
اختار أن يتركه على حريته ليقاسمه هذه المصلحة العاجلة .
والإنسان المكبر بفعل ذلك يجتث ويدعى أنه ضعيف وأن حيوانيته
غلبته .

ولكنه يكذب ليبرر لنفسه ما يخلتس من لذات . . .
وما أجرأه على الكذب ذلك الذى مشى على القمر وارتحل إلى
النجوم . . . وأخضع وحوش الغاب حينما يدعى أنه لا يستطيع أن يحكم
الوحش . . . بداخله . . .
بأنه لا يستطيع أن يحكم . . .
بأنه لا يستطيع أن يحكم . . .

ومن قبل ذلك بساعات كنت في السيرك أشاهد قروود الشمبانزى
المدربة . تركب البسكليتات وتجرى بقباقيب الانزلاق . . . وكنت أرى
السباع والنمور المفترسة تلحق خد مدربيها في خضوع .

ورلاندو - الأحد - ٣٠ أغسطس

سهول فلوريدا الخضراء ذات الجو الدافئ والأمسيات الرطبة . .
الخضرة على مدى البصر . . . والسماء زرقاء صافية . . . والنسيم كغلاظة
من حريو . . .
حظن الطبيعة رائع . . .
تمنيت أن أنام في هذا الحظن وأنسى كل شيء . . .
هنا أجمل متحف حي لعالم البحار . . . مبنى كامل منفرد لسمك
القرش . . . ومبنى آخر للحيتان . . . ومبنى ثالث لسباع البحر وكلاب
البحر وأفيال البحر . . . مع تجهيزات كاملة للعروض السينمائية المجسة .
شاهدت مسرحية ضاحكة لزواج أحد سباع البحر . . .
المرح شاطئ بحيرة صناعية والمدرّب يحرك سباع البحر بمهارة
مذهلة .

المجموعة المتحضرة . . وحظنا من ذلك قليل وحظهم كبير . .
وأؤكد أقول إن أصدق تعريف للحضارة هو القدرة على التفاهم
بين المختلفين . . والقدرة على تجاوز التناقضات في المواقف والآراء
والأمزجة وتغليب الإنسانية والحكمة . . وإنما تأتي حكاية التقدم العلمي
والتكنولوجي كنتيجة لهذه الصفة صفة تغليب الحكمة والفكر . .
ولقد تقدموا في العلم والتكنولوجيا بسبب هذه الصفة وليس
العكس . . ولكنني شديد التفاؤل . . وأقول لنفسي . . لقد اكتسبت
أمريكا هذه الصفة بعد حروب تاريخية طويلة حارب فيها بعضهم بعضاً
مثلنا . . وعبروا إلى شاطئ الأمان بعد أن خاضوا أنهار الدم . .
ولعلنا نمر الآن مثلهم بهذه المرحلة التي مروا بها ونحوص مثلهم أنهار
الدم . . إن التاريخ يعيد نفسه دائماً ولا شيء يكتسب بدون ثمن - إلى
متفائل . . وقد نستطيع أن نختصر التاريخ ونوفر الدم إذا استبصرنا العواقب
واستفدنا من العبرة . . وواجهنا أنفسنا بالأمانة اللازمة . . ولم نخلق
أنفسنا بالشعارات والمصقات القديمة المستهلكة أمثال بلاد الخواجات
بلاد الكفر . . الحضارة الأوربية أفلست . . ليس عندهم سوى
الانحلال والمخدرات . .

يمثل هذا الكلام نخدر أنفسنا وننسى أنهم مشوا على القمر وفجروا
الذرة . . وزرعوا الأجنة في الأنابيب وعبروا الفضاء . . وما كانت هذه
الناطحات التي تنطح السحاب إلا رمزاً لهذه الروح الإيجابية التي تعشق
اقتحام المخاطر . .
إن هذه الروح التي حاولت أن تتأطع السماء هي نفسها التي عبرت
الفضاء . . وهي نفسها التي حاولت أن تثقب الأرض لتثقب عن
البترول . . وهي نفسها التي حفرت النجم . . وهي نفسها التي غاصت في
البحر وغزت البر وفجرت الذرة وانطلقت إلى المريخ . .
هذه الروح الناشطة المغامرة الناهضة بهمة للعلم والعمل
والاكتشاف والتجديد هي الوجه الجدير بالإعجاب من الشخصية
الأمريكية . . وإذا ذكر العنف فأمريكا ليست أول من يتصدر العالم في العنف
وإنما إيطاليا أولى بالذكر . . وهي عاصمة المافيا والعنف بحق . .
وأقول إيطاليا لأن إيطاليا بلد صغير ليس فيه خمسون ولاية . .
وليس فيه سود وبيض . . وليس فيه تعدد أديان ولا تعدد أجناس يفسر
أنهار الدم التي تسيل في الشوارع كل يوم . . ويفسر القنابل التي تنفجر
في الكبير والصغير . . ولا تفسير للعنف هناك سوى العنف نفسه . .
العنف النفسي الذي يتصاعد في النفوس على شكل جماعات وتنظيمات

وأحزاب وألوية حمرء وسوداء وبمين ويسار . . . وهو عنف بلا عائد . . . عنف لا يقابله أى صورة من صور الصحة الاجتماعية . . . وبالمثل ما يجرى فى لبنان . . . وما يجرى فى أمريكا اللاتينية . . . وما يجرى فى الدوليات الإفريقية الحديثة الاستقلال . . . وإذا لاحظنا أن أمريكا أكبر تجمعات إسلامية . . . وإذا لاحظنا أن الدعوة الإسلامية ناشطة وفاعلة من خلال الندوات والمطبوعات والكتب . . . وإذا ذكرنا أن الإنتاج الناشط فى الزراعة يعطى فائضاً من القمح يطعم أمريكا وروسيا معاً والإنتاج الصناعى المتطور يغطي العالم كله . . . فإن الصورة الشائعة بأن أمريكا هى الجريمة والكفر والمخدرات . . . هى أبعد ما تكون عن الحقيقة . . . فأمريكا أيضاً هى العلم والعمل والفن والاختراع . . . وأمريكا هى المناخ الحر الذى يرتفع فيه الخير والشر معاً ، بل ينمو فيه أى شئ ، قابل للنمو . . . فإذا بحثت عن المجرمين تجدهم وإذا بحثت عن أهل الخير والصالح والدين تجدهم . . . بل تجد أكثر من ذلك . . . تجد جماعات من المتعصبين ومن دعاة التطهر الدينى ومن الغلاة المتطرفين من المسيحيين والمسلمين . . . كما تجد الوجوديين والانحلاليين والرافضيين . . . كما تجد غرائب الملل والنحل من أمثال

دعاة التاتاريوجا وأتباع الصمدى (يوجا هندى جديد يدعو إلى الاستمئاع) . . . كما تجد رهبان العلم العظمين على دراساتهم ومعاملهم . . . كما تجد أهل المذات العاكفين على لذاتهم . . . لكن الجوانب الإيجابية مازالت غالبة على الجوانب السلبية فى الصورة العامة . . . والأمريكى العادى إنسان ودود عائلى متفتح بسيط يحب للخير . . . وهو يفكر بطريقة دينية برغم الحياة المفرقة فى المادية التى يعيشها . . . ولكنه يقدس حرمة الشخصية ويضعها فوق كل اعتبار . . . ولا ينافس النشاط الأمريكى إلا النشاط اليابانى . . . إنك ترى النشاط اليابانى فى شوارع نيويورك ترى طوابير السيارات اليابانية الفارهة ترحم المرور ويتسابق إلى شرائها الأمريكيون وترى اللغة اليابانية على المحلات والمكاتب . . . وترى السواح اليابان . . . وترى الوفود والخبراء . . . والعلم والإنتاج اليابانى فى الإلكترونيات والساعات والكاميرات يزاحم الإنتاج الأمريكى فى الفترينات ويقدمه الأحسن والأرخص . . . وقد بدأت اليابان هذه النهضة من الصفر . . . من دمار كامل . . . وهذا يعطينا مثالا على أن التقدم التكنولوجى ليس لغزاً ولا وأن التخلف ليس قدراً علينا . . . وأن العمل والنشاط يستطيع أن يعبر بنا الفجوة فى لآزمان . . .

وإذا خاطبت الواحد منهم يقول لك إنه يشعر أنه لو بارح المكان
يفقد روحه . وهي كلمات بسيطة ولكنها تعنى الكثير .

وإذا أمكن أن يكون للمكان روح ففي هذا الخور بالفعل . حيث
تشر بيصمات ألفي مليون عام في لقطة واحدة فيما يشبه الصدمة التي
يقف لها شعر الرأس . . وكأنما نحول الزمن إلى عمل رائع من أعمال
النحت المذهل .

وتصفع وجهك الرياح الباردة الثلجية فتضيق لتعود إلى حيث يقف
السائق ليأخذك إلى القرن العشرين . ثم إلى المستقبل الذي لا يعلم أحد
كيف يكون .

تذا

الأثنين ٧ سبتمبر سنة ١٩٨١ جراند كانيون:

جراند كانيون أو « الخور العظيم » هو فلق أرضي أو انشقاق بعمق
سبعة آلاف قدم ، وعرض عشرة أميال . وبطول عدة كيلومترات .
حفرت مياه نهر الكلورادو وفعل الزلازل وتفجرات البراكين منذ أكثر
من ألفي مليون سنة . . وهو مسرح بكر لفعل الطبيعة وعوامل النحات
والشعربة والتآكل . تحتفظ به أمريكا على بكارته ليكون متحفاً
جيولوجياً يقصده السواح من كل أنحاء الأرض وعدسات
الكاميرا لا تستطيع أن تحيط به في صورة واحدة ولا في عدة صور .
وكذلك العين البشرية إذا نظرت من زاوية واحدة . . ولا بد أن تصعد
في طائرة لترى من الجو هذا الأثر العجيب لتشعر بضخامته .

وفي عمق الخور تعيش بعض قبائل الهنود الحمر في أكواخ ولا ترح
مكائنها برغم قسوة ظروف الحياة وتعاقب الحر والبرد والزمهرير .

لا . . . إنه ليس مجرد المكب . فإنه يستطيع أن يكسب بالعمل
 . . . وسوف يستمر يقامر حتى لو استمر يخسر .
 إن اللذة ليست النقود .
 ولكن اللذة هي مباشرة الحظ والمكسب والمغيب .
 اللذة هي مساوئة القدر .
 والوجه المحجوب من الكارت هو القدر .

واللذة هي تلك الرغبة التي تهز كيانه المقامر لحظة أن يمد يده
 ليكشف الكارت . فهو ليس مجرد كارت . ولكنه القدر بعينه .
 وهو في حالة مباشرة مستمرة للقدر .
 وهو يتصور أنه يستطيع أن يملك قدره .
 وهذا الوجه هو اللذة القاهرة التي تستبد بالمقامر حتى تقضى عليه .
 وهي لذة تشد فهداً وتستبداداً من لذة الجنس والمخدر .
 وهي تنمو بالمزاولة حتى تصبح عادة لا فكاك منها إلا بالموت أو
 الانتحار . والنصيحة الوحيدة أن تغلق الباب الذي يدخل منه الريح .
 لا تضع قدمك في لاس فيجاس إذا أردت السلامة . فالسألة
 تبدأ عادة بربع دولار .

الثلاثاء ٨ سبتمبر سنة ١٩٨١ لاس فيجاس :

عاصمة القمار الثانية في العالم . . . ديانتها الدولار . وآفتها الخمر
 والنساء وهول النكا والديسكو .
 منذ أن تضع قدمك في المطار نسمع جلبة النقود في ماكينات
 الحظ الإلكترونية . . . اللعب واكسب . . .
 وفي الكازينات الضخمة حول موائد الروليت والباكاراه تجري
 عدة ملايين كل ساعة زمان بين الأيدي المرتعشة . وتنعقد حلقات
 الدخان وتلمع الماسات والسوليترات في الأصابع وعلى الصدور
 العارية . وتبرق العيون في تلهف في انتظار اللحظة التي تقف فيها عجلة
 الروليت .

وتسأل نفسك أي لذة يشعر بها ذلك الرجل الذي يلقي بكل
 ما يملك على المائدة .

اليوم ويك إندي . الأغاني كلها تتحدث عن الحب أفيشات الأفلام
كنها حب .

أدريت مؤشر الترانزستور الصغير فسمعت صوت الحب على جميع
المحطات . . وسمعت في الإعلانات .

تعددت على الخشيش ونظرت في استرخاء إلى كل شيء .
سألت نفسي ماذا أريد . هل أطلب الحب أنا الآخر .
لقد وجدت الحب . كنت دائماً أجده . ولكني لم أجده الرحمة .
والذي يحب لا يرحم .

الحب بما فيه من رغبة وشهوة وامتلاك لا يرحم .
ثم هو بعد كل ذلك لا يدوم . . وتلك غاية القسوة .
وفي المدن الكبيرة المزدحمة التي تعج بالملايين يتبادل الناس الحب
والمصالح والمنافع . ولكن لا أحد يرحم أحداً .

في هذا العالم المادي الذي يتدافع بالاكثاف والمناكب في سبيل
اللحمة لا وقت للرحمة . . ليس هذا فقط حال نيويورك أو شيكاغو .
بل هو أيضاً الحال في القاهرة ولندن وباريس وروما وكل المدن
الكبرى . . وكل الحضارة المادية التي نعيشها .

ولكن المشكلة تزداد حدة كلما ازداد التقدم المادي وكلما ازداد
عدد الأزرار والكمبيوتر والأتوميش والميزر والتحكم الإلكتروني .

لوس أنجلوس - الأربعاء ٩ سبتمبر ١٩٨١ :

كاليفورنيا المبهجة . . الشاطئ الآخر من القارة على مياه الباسيفيك
عند أقصى الغرب حيث منتصف الليل هناك هو رابعة النهار هنا في
القاهرة .

على بعد كيلو مترات قليلة بلاج ميامي . وعلى مسافة دقائق عالم
الخيال في ديزني لاند . حيث قصص ألف ليلة . وسندريلا وحواديت
الجن والسحرة . تراها مصورة بحدة في عالم من الدمى الإلكترونية
البديعة .

الحر شديد . . والرطوبة عالية . . وحوه من كل الجنسيات تملأ
الشوارع والحدائق . . سود وبيض وحمرو وصفر . عبق مختلط من كل
أنواع البارفان يداعب الخياشيم مع صوت أغاني الديسكو الذي
يتصاعد من عربات السندويتش .

بقدر ما تغزو الآلة بقدر ما يتراجع العامل الإنساني ويتضاءل الفرد ويتعاظم شأن المؤسسات والمكينات .

وهذا هو الوجه القاسي من الحياة الشرفية الحديثة .

الحياة تتدافع وتهول . . ومعدلات التغير السريع تقفز كل يوم . كل يوم يأتي ومعه اختراعات جديدة وأخطار جديدة واحتمالات مفرقة وإيقاع الحوادث يتابع ملتبهاً للدرجة لا نستطيع معها أن تتبأ ماذا يكون الغد . وكل هذا يشكل ضغطاً عصبياً على المواطن . والنتيجة توتر نفسي عام .

والتوتر هو سمّة الشارع والبيت في أمريكا وأوروبا والعالم المتمدن كله .

وهذا يلجأ الأمريكي العادي إلى الكأس . . ويلجأ الشباب إلى المخدر والماريجوانا والكوكايين .

وفي إحصائية أخيرة بين جنود البحرية الأمريكيين بقول التقرير إن ٤٩,٥٪ أي حوالي نصف المهندسين مدمنون خمر أو مخدرات أو الاثنين - وبين طلبة المدارس أكثر من عشرين في المائة يتعاطون الخمر أو المخدرات . والإحصائية مفرقة ويمكن أن تؤدي إلى مضاعفات هائلة في المستقبل .

وإذا لم تلجأ الحكومة إلى سن قوانين صارمة وراذعة لوقف هذه

خوذة لدمرة من المخدرات . فالبيئة الاجتماعية مهددة . والعصب الاجتماعي يتآكل شيئاً فشيئاً تحت هذا المظهر الراق الخلاب من التقدم .

وأحياناً لا بد أن تصدر الحرية لنحصى الحرية . ولكنهم هنا يفزعون من أي شيء بحس الحرية . ويقولون إن أمريكا هي الحرية . . وإن الحرية هي التي صنعت العلم والرخاء والتكنولوجيا والتقدم وهذا صحيح .

ولكن حرية صانع الكوكايين والمهيروين سوف تهدم هذا كله . ولن يبقى لأحد حرية ، إنه الخير الذي يلد الشر . إن الحرية أنجبت نسلاً من الملائكة . ولكنها أنجبت أيضاً نسلاً من الشياطين العظام . إنها قد أنجبت البنائين الذين بنوا أمريكا ولكنها اليوم تحجب المخربين الذين يعملون على هدم هذا البناء من القواعد .

وكم أحب الخير الشر . كذلك نرى أحياناً أن الشر قد ينجب خيراً . فقد سقطت قنبلة هيروشيما الذرية على اليابان وكانت شرّاً مطلقاً . ولكنها ما لبثت أن أنجبت السلام . وحررت المهارة اليابانية من اقتصاد الحرب المنهك . وأطلقت طاقات التحدي والإبداع . وفي سنوات قليلة تحولت الأمة اليابانية الفقيرة المغلوبة فأصبحت سيده الأمم

في الإنتاج والاقتصاد والثراء . ودخلت الصناعة اليابانية على أمريكا
عقر دارها .

وتلك مهزلة الأضداد التي تلد بعضها بعضاً .
ومن يقرأ التاريخ لا يدخل اليأس إلى قلبه أبداً وسوف يرى الدنيا
أياماً يداوطا الله بين الناس الأغنياء يصبحون فقراء . والفقراء يتقلبون
أغنياء . وضعفاء أمس أقوياء اليوم وحكام أمس مشردو اليوم .
والقضاة منهمون . والغالبون مغلوبون . والفلك دوار والحياة لا تقف .
والحوادث لا تكف عن الجريان . والناس يتبادلون الكراسي ،
ولا حزن يستمر . ولا فرح يدوم .
ترى هل يعلم قضاة أمريكا هذه الطبيعة الجدلية للحوادث . لو
علموها حقاً لعلقوا صناع الكوكابين والمهيروين على أعواد المشايق
ولضربوا بالحربة عرض الحائط .

...

كاب كانفرال . . الجمعة ١١ سبتمبر ١٩٨١ :

منصة إطلاق الصواريخ إلى القمر والكواكب .
المكوك الفضائي جاثم في مكانه على المنصة في انتظار أمر الإطلاق
بعد أيام .
١٧ مليون رطل وزن المكوك والزاحفة الحديدية التي حملته إلى
منصة الإطلاق .

ووزن الزاحفة وحدها ٦ ملايين رطل .
ووزن المكوك ١١ مليون رطل . . أشبه بعمارة متعددة الأدوار
تقذف إلى الفضاء الخارجي في دقائق . . لتندفع بعد ذلك بسرعة ٢٢
ألف كيلومتر ساعة .

عمل من أعمال الصلابة البشرية . .
وقفت أنامل هذا المارد الإلكتروني المعتقل بكلايات من حديد .

والذى ينتظر لحظة الانفلات من قبضة الجاذبية .

وقلت لنفسى . . هذا هو شرف أمريكا الحقيقى .

العلم والتكنولوجيا والمال والصناعة .

وروح المغامرة والاندفاع الإيجابي نحو الجديد .

والرغبة فى اكتشاف المجهول .

وتذكرت ما كان يتصايح به البعض عند هبوط أول إنسان على

أرض القمر .

أما كان الأولى أن تنفق هذه الألوف من ملايين الدولارات على

البطون الجائعة التى لا تجد لقمة الخبز .

وكانت مثل هذه التعليقات تتردد فى أمريكا ذاتها

وكانت المظاهرات تجوب الشوارع تطالب بالكف عن الإنفاق على

هذا الترف العلمى .

ولكنه لم يكن ترفاً . بل كان أشرف ما انفرد به الإنسان على كل

المخلائق . . الرغبة فى اكتشاف المجهول . بل كان الروح ذاتها الطامحة

نحو المعرفة .

أما ألوف الملايين من الدولارات فناء العالم ينفقن أضعافها كل

عام على العطور وأدوات التزيين . وأحمر الشفاه وطلاء الأظافر .

ولا أحد يعترض .

ونظرت إلى المارد المكيلى أمامى فى انتظار لحظة الانفلات من

قيوده . . وقلت فى نفسى . . لا . . إنه لم يكن ترفاً ما أنفق من مال . .

ويعنف أضعافه فلن يكون ترفاً . . فقد بذل العلماء العظام أرواحهم

من قبل فى سبيل خطوة واحدة نحو الحقيقة . . بل فى سبيل حرف

واحد جديد يضاف إلى كتاب المعرفة . وليس بعد الروح شىء . . بهذا .

السبت ١٢ سبتمبر سنة ١٩٨١ في الطائرة إلى واشنطن :

فوق السحاب على ارتفاع خمسين ألف قدم . أشاهد فيلما سينمائيًا في الطائرة .

الذى يعرف المرأة الأمريكية من الأفلام لا يعرفها مطلقًا . فالأفلام الأمريكية تعطى فكرة مغلوطة عن النساء في أمريكا . إن النساء في أمريكا لسن مارلين مونرو . . . ولسن بطلات الإغراء اللالى نراهن يتفنن في الغواية على الشاشة .

المرأة الأمريكية إنسانة جادة واقعية . لها استقلال الرجل وحرية ، وهي تكسب حياتها بعرق جبينها مثله . . . وهي تزامنله في كل مراحل الدراسة وتنافس في جميع أعماله .

والمرأة في أمريكا أقوى شخصية من الرجل وأكثر منه صبرًا وتحملًا ، وأبعد نظرًا وأصدق فراسة . . . وتجدها في مقاعد الرئاسة في

كثير من مناصب الحكومية والحرية وتجدها باهضة بجميع الأعمال . والمائة سنة لقاعدة في أمريكا ستكون عصر المرأة وليس عصر الرجل . . . وربما يكون هذا هو حال العالم أيضًا . ألم نشهد مسرًا تأثر في إنجلترا . وماريا دى لورديس في البرتغال . وسيمون فيل في البرلمان الأوربي . وأنديرا غاندى في الهند . ونيريزا حاملة لجائزة نوبل ؟ إن الركب يسير . ولكن الثمن ندفعه كلنا فادحًا . فالمرأة والرجل في الشارع وفي المصنع والمكتب والشركة . . . والأطفال في دور الحضانة . . . ولا يجد الرجل ولا تجد المرأة الوقت لتربي طفلها . الروابط الأسرية تضعف والطفل المحروم من الأمومة والأبوة يبدأ يفكر لنفسه منذ السنوات الأولى . . . ويتعود أن يواجه كل شيء منفردًا . وهكذا تنمو الروح الفردية على حساب التماسك الاجتماعى والذابط الأسرى ؛ ولا أدري ماذا يمكن أن يكون الأثر لتفارق هذه الروح بعد سنوات

ما هو شكل المستقبل ؟ لا أدري على وجه التفصيل . . . ولكن لن يكون الأثر الحضارى إيجابيًا بل سلبيًا . وتفكك الأسرة مثل تفكك الذرة بطلق أشعة وطاقة في البداية . . . ثم بعد ذلك يكون الفناء . واجتمع الأمريكى بحبويته يحاول أن يعوض هذا التفكك الأسرى عن طريق مؤسسات الضمان الاجتماعى والجماعات الخيرية التى تتولى

الصدقة والإحسان وحضانة الأطفال وتربية الأيتام . وعن طريق البرامج الدينية المتطورة والتوعية الدينية التي تخصص لها ساعات طويلة من البث التلفزيوني .

والجماعات الدينية طرف آخر له صوت وضغط على الرأي العام الأمريكي من خلال المطبوعات والمنشورات والندوات الإذاعية والتلفزيونية

والأمريكي العادي يستجيب لدافع الخير وللخوافز الدينية برغم الحياة المادية التي يعيشها

ولكن هل يستطيع هذا النشاط الاجتماعي والديني أن يعالج التفكك الأسري الموجود ؟ هذا سؤال لن يجيب عنه إلا المستقبل . لقد رأينا مظاهرات نسائية في ألمانيا تطالب بترك العمل والعودة إلى البيت . . . وسمعنا عن زوجات في ألمانيا يشترطن على الزواج إعفاءهن من العمل المتفرغ للبيت .

هل هو وعي نسائي جديد سوف يغير اتجاه التاريخ ويعود المرأة من جديد إلى مملكتها الأولى أو هي مجرد صيحات . . . وتقاليع ؟
أشك في عودة المرأة إلى البيت بعد أن ذوقت طعم الحرية والاستقلال . وبعد أن تربعت على كراسي الحكم وجريت السلطة

ومাত্রاه في أمريكا نراه في كل مكان من العالم المتقدم .

إن تيار الحرية العارم جرف المرأة إلى الشارع ولن يعود بها . ونحن نقبلون على عصر جديد هو عصر المرأة . وسوف تكون امرأة أخرى تختلف عن أمهاتنا . ولن أتعجل الحوادث وسوف أترك التاريخ يكمل قصته .

الأحد ٢٠ سبتمبر - أثينا . . طريق العودة .

فارق مائة سنة بين شكل المدينة في بلد كاثينا . وشكل المدينة في بلد كنيويورك . . وفارق مائتي سنة في العلم والخبرة . وفارق ألف سنة في أجهزة القوة وعضلات التقدم

وبعد قرن آخر من الزمان . إذا ظلت أفريقيا على حالها من التأخر

ستصبح المسافة بينها وبين أمريكا كالمسافة بين الإنسان والقرد

لقد أثبت العلم في القرن الأخير أنه يستطيع أن يغير البيئة تمامًا .

ويستطيع أن يقلب موازين القوى . ويستطيع أن يحدث ثورة في

الإنتاج ويستطيع أن يقود ويغير . وليس أمام أي بلد طموح بمحاولة أن

يلحق بركب العصر سوى أن يركب قطار العلم فوراً ودون تأجيل

لكن العلم وحده لن يكفي . بل هناك شيء آخر هام . . هو

الحرية . فالحرية سوف تخلق المناخ لإقراز المواهب . وسوف تعطي

تفرصة لتصحيح الأخطاء . وحظ أمريكا من الحرية كبير . . بل هو كبير من اللازم . فصانع الخير يجد فرصة . وصانع الكوكابين يجد فرصة . والمقاتل يجد فرصة . والمصنوع يجد عشر فرص . والشواذ جنسياً يجدون مائة فرصة . وتلك هي الثغرة الخطرة في نظام الحرية الأمريكي وهم يقولون في أمريكا إن الحرية لا تتجزأ . .

وأنا لا أطلب بتجزئة الحرية . . ولكني أطلب بصرامة العقاب . .

إنهم في روسيا يقطعون رقبة السارق . وفي السعودية يقطعون يده . .

وفي أمريكا يعرضونه على الطبيب النفسي الذي يكتب تقريراً بأنه

مسكرين . وبأنه لم يثلق الحنان الكافي وأن أمه تزوجت غير أبيه . وأبوه

تزوج غير أمه . ويقترح إعطائه معونة وشكولاتة وعلاجاً نفسياً .

ولا أفهم أي معنى لهذا التدليل سوى حماية الفساد وتشجيعه . .

ولا أفهم من أولى بالنعطف . صانع الكوكابين الذي يدمر جيلاً بأسره

أم الألاف من ضحاياه من أطفال وأولاد المدارس ؟

إن الحرية حينما تعني قلب موازين القيم سوف تلغى مبرر وجودها

منه . . فإن حرية صانع الكوكابين معناها استعباد الجيل كله في

إغلال الخلد . . وحرية الشواذ جنسياً معناها فتح الباب على مصراعيه

لإفساد الفطرة الإنسانية كلها .

أعتقد أنه لابد من نظرة تشريعية جديدة في نظم العقاب

الأمريكية . . فإن العلم والحرية لا يكفيان لضمان التقدم . بل هناك شرط ثالث لابد من توافره وهو القيم . . والقيم هي دعائم البنيان وبدونها ينهدم أى بنيان مهما بلغ من القوة . .
ولن تسلم القيم بدون حراس يسهرون عليها . لقد طرد الرئيس ريجان ١٧ ألف مراقب جوى بحرية قلم . وهو حزم ملحوظ وسرعة في المبادرة .

ولكن هناك ظواهر متعددة في المجتمع الأمريكي أولى بهذا الحزم وأولى بهذه الصرامة . مجرد ملاحظة من مسافر عابر .

وأفكار
من الساطع الآخر

الشيوعيون الجدد .. وكيف يعملون ؟

في الماضي .. في الأربعينات .. كان الشيوعي بطلا .. كان يشعر أنه يكافح من أجل قضية مقدسة .. كان يقول صادقا أو واهما .. نحن مقاتلون ونموت ونسجن في سبيل الجوع والمطعونين .. نحن حرب عن الاستعمار في كل مكان .. نحن ثورة على المظلم والقهر والاستغلال ..

وكان الشباب الثائر ينظر إلى موسكو الكعبة .. وإلى لينين رسول الإنسانية .. وإلى ماركس صاحب الإنجيل البروليتاريا .. وكان الماركسي راهب عصره وقديس زمانه ، يمشي في حالة من الاحترام .. ويموت شهيدا تكتب فيه الأشعار والمرثي .. وتغنى فيه ملاحم وتسج حوله أساطير المجد والبطولة .. وكانت الاشتراكية أغنية .. والمادية الجدلية لاهوتا .. وجيفارا مسيح الوقت ..

ثم دار الزمن دورته وتغيرت المبادئ واقتضحت الأفكار وتمزقت
أقنعة النظريات . . . وإذا بالشيوعي الفيتنامي يقتل الشيوعي
الكهودي . . . وروسيا تقاتل الصين . . . والصين تغازل أمريكا . . .
والاشتراكية تستبدل ظلمًا طبقيًا بظلم طبق آخر أكثر شراسة . وتريح
طاغوت أفراد لتقيم طاغوت دولة . وتسجن مجتمعات بأسرها وراء
القضبان .

وبالأمس القريب كان حليف إسرائيل في العدوان الثلاثي على مصر
فرنسا الاشتراكية في عهد موليه الاشتراكي .
واليوم نرى روسيا تحتل أفغانستان ليس احتلالًا عقائديًا وليس
احتلالًا اقتصاديًا وإنما احتلال عسكري . واستعمار سافر وفهر لشعب
أعزل بالحديد والنار والقوة الفاشمة

لم تعد للشيوعي مثاليات يتغنى بها . ولم تترك له روسيا شرقًا يقاتل
من أجله ، ولم تبق له إلا عمالة سافرة لأبشع الأهداف . للمقهر والمظلم
والاستغلال . . . الذي كان يدعى أمام الناس أنه بخاريه .

لم يبق للشيوعيين إلا أن يكونوا عملاء استعمار لا أكثر .
وجواسيس على بلادهم . وحربًا على أهلهم وأوطانهم . ترى ماذا
يقول جيفارا لوبيث حيا وتلفت حوله ينظر في وجوه رفاق الأمس
كاستروا البلطجي ، ومونجستو السقاج . وإلى المبدأ الذي تحول إلى قتل

وقطع طريق . وسرقة شعوب ونهب أوطان . . . وماذا يقول عن الإخوة
الأعداء الذين قتل بعضهم بعضًا في عدن . . . وماذا يقول عن الرفاق
نور الدين تراقي وحفيظ الله أمين وبابراك الذين أعدم بعضهم بعضًا
بحساب المادة في الكرملين .

وماذا يقول عن مناهة الأكاذيب التي اعتنقها وروج لها واستشهد
في سبيلها ومات خادعًا مخدوعًا . وماذا يقول عن أسطورة البطل
الخرافي التي نسجوها حوله . أراهن أنه يموت من جديد غمًا وكمدًا
وعيقًا . إن الكل الآن بعيد النظر والعالم بعيد حساباته .

من كانت لهم العسكرة أصبحوا في آخر الصفوف . ومن كان لهم
المجد أصبحوا في أقباص الاتهام . والجحني عليهم أصبحوا جناة
وقتلة . والعسكر أصبحوا حرامية . وكعبة موسكو أصبحت مغارة
لصوص

والشيوعيون الجدد مزقوا شعاراتهم ولافتاتهم وأنكروا هويتهم من
الخرى . وبدعوا يستعيرون هويات أخرى وراحوا يعملون تحت رايات
أخرى .

إن التيار السائد الآن هو التيار الديني فليعمل الجميع تحت هذه
الراية . الضرورة واستراتيجية المرحلة تحكم . تلك مبادئهم . . .
ولقد سمعنا الإرهاني الإيراني « فلاح الدين حبشي » يقول إن

حزب توده الشيوعي يعمل من داخل عبادة الخميني . بل هم يعملون من تحت جلده . وفي سن الثمانين يصبح العجوز طفلاً في عقلته بسبب تصلب الشرايين . وما أسهل أن يصبح العزبة في أيدي من يعرف كيف يفوده ويؤثر فيه .

وهم هنا في الجامعة يعملون من وراء الشعارات الدينية ويدفعون بالشباب المتطرف الرافض إلى هوس ديني في محاولة ذكية مكررة للتخلص من النظام ومن الدين معاً . والوصول بالمجتمع إلى حالة من الفوضى تصبح فيها الشيوعية هي طرق النجاة الوحيد

هؤلاء هم أصحاب اللحي الجدد الذين يرفعون المصاحف على أسنة المطرقة والسندان . وينادون بالشرعية ليقطعوا بها أباي خصومهم ويصلون على محمد بظاهر السنن وعلى لينين بكومون قلوبهم . ويدفعون أمامهم بقطعان من الشباب الساذج ويقولون : اقتل . احرق . خرب . دمر . في سبيل الله . صبح انقلاب في السينات والمسارح والبنوك والمؤسسات . ارفع راية العصيان في كل مكان . فذلك دولة الفسق وأنت المهدي المنتظر

وما أكثر من يتدفع من الشباب ليموتوا في معركة ليست معركة فنيكس الشباب على حذر من هذه اللقمة المزدوجة . وليتذكر أن الدين

حب وسخاحة وتقوى وعمل صالح وبناء وتفان في الخير وتعاون على

الخير . وليتذكر أن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يكن سفاحاً ولا قاتلاً ولا مخرباً . ولم يكن يشعل الحرائق . ولم يكن يغتال الآمنين . بل كان يداً خضراء ولسان صدق وكلمة محبة

أما هؤلاء الرافضون فهم الماركسيون الجدد في لباسهم التنكري خديعة بعد أن تعرت مبادئهم وظهر فسادها حتى النخاع

المؤامرة . .

ضحك الشيوعيون على أنفسهم وعلينا حينما ظنوا أن الشيوعية حضارة جديدة تقوم على أنقاض الحضارة الأوروبية الرأسمالية التي تصدع بنيانها . . وصوروا لأنفسهم ولنا أنهم أنبياء. ورسّل هذه الحضارة الجديدة إلى العالم . . والحقيقة أنهم يبيعون لنا نفس البضاعة القديمة تحت اسم جديد . . فما الرأسمالية والشيوعية إلا وجهان لعملة واحدة هي الحضارة المادية التي أنجبتها الوثنية الصناعية في بداية القرن التاسع عشر .

إن الوثنية الصناعية هي الحضارة الأم التي أنجبت النظام الرأسمالي كشكل اقتصادي . ثم النظام الشيوعي كشكل اقتصادي آخر ليؤدي نفس الغدق . وليخدم نفس الغايات . وليخلق نفس العقلية عتلية إنسان كل همه واهتمامه إشباع حاجات الملحظة (فيما يسموته بأسطورة

نرخاء في النظامين) ونسيطرة على البيئة وسيادة الكون وتغيير التاريخ (شعرت بتشدق بها الاثنان) وامتلاك المال والأرض والمصنع في الرأسمالية . وامتلاك الرقاب الذي يمارسه الحزب الشيوعي (نفس الشيء . وأسوأ) . وأسطورة القوة المادية (ممثلة في الغزو العسكري للرأسمالي وفي الغزو المذهبي الشيوعي الذي أسفر عن وجهه أخيراً فتحول إلى استثمار عسكري وغزو حرى صريح في البحر وتشيكوسلوفاكيا وأفغانستان والسلفادور) .

بل إن نفس هذه الوثنية المادية قد أنجبت الصليبية والصهيونية لتقوم بنفس الدور تحت ستار الدين . . الاستثمار العسكري والغزو الفكري والسيطرة بالقوة على مقدرات وثروات الآخرين . . بل إنها هي التي تحول وتشجع وتصدر لنا حركات من نفس النوع ظاهرها ديني وحقيقتها سياسية وأهدافها انقلابية مثل التكفير والهجرة في بلادنا ، وحركة المهدي المسلحة في مكة وثورة الخميني في إيران (وقد خطط الخميني لثورته وهو في حضارة فرنسا ، ثم قام بها ونفذها تحت مظلة الحجة الأمريكية في إيران ، إنها نفس لعبة الأمم التي تلهو بنا كما تلهو بفضع الشطرنج) وقد عادت هذه الأمم فضربت إيران بالعراق لتكسيح الاثنين .

ومن العجيب أن ترى روسيا وأمريكا تعطيان السلاح للثنتين

وتحرصان على مد أجل الحرب بينهما كلما بدأت تفتت . نرى هذا بأعيننا ولا نفيق ولا نعتبر .

نحن أمام نمط فريد من المكر العائلي يحاول أن يكرر بنا حتى باستخدام شعاراتنا . . شعارات الدين والإسلام . . فيشجعنا عليها بعد تزييفها . . فهذه الأنماط الجديدة من الإسلام الثوري هي نفس الشعارات الوثنية بعد إعادة تعبئتها في عبوات إسلامية . . إنها نفس الشعارات الاشتراكية التي تمخض الطبقات على بعضها . وتنشوق بالرخاء وتشير أحلام السيطرة وتحرك العصبية . وتبيع الطائفية . وتولد الحزازات بين الملل . ولا تأخذ من الإسلام إلا الطغوس الشكينة والمظاهر .

إن جميع هذه الانحرافات هي نسخ متعددة مختلفة من أصل واحد . وإن تسعت أحياناً بالإسلام . وأحياناً بالصليبية وأحياناً بالصهيونية . وأحياناً بالراسمالية . وأحياناً بالشيوعية . . إنها هي الوثنية الصناعية المادية التي تحاول أن تجعل من الإنسان عبداً للمكينات والمنتجات الترفيه . والفاترينة الاستهلاكية . عبداً لأوهام السيطرة وأحلام القوة . . أسيراً لشهوات البطن والجنس وخادماً لرغبات اللحظة . . وقوداً للحروب . . مشغولاً بالتواقة والخشاش . متهاكاً

على جمع الخطاء الغافى . . مشتتاً بين الأوهام . . ممزقاً بين العصبية والانحرافات حتى ينهي عمره .

إنها جميعاً وجوه حضارة واحدة هي الحضارة الوثنية المادية . . وهم قد اختاروا لنا سلفاً وأرادوا لنا وأرادوا بنا . وصنعوا لنا شعاراتنا الجاهزة . وصدروا هذه العبوات الفكرية والدينية المعلبة المزيفة . . وتخطيطوا لنا كل البدائل التي أرادونا أن نختارها . . وفي النهاية طمسوا على أصدورنا بالإعلام الموجه والغزو الفكري ومدفعية الكتب والصحف والإذاعات والتلفزيون لنظل في دوامة لا نفيق على حقيقتنا أبداً . وفي نظرهم أنه لا يجب أن يخرج تفكيرنا واختيارنا عن قنوات مرسومة . . فنحن إنما أن نخذو حذوهم النعل بالنعل . فننقسم إلى شيوعى ورأسمالى ويمين ويسار وننتقل فيما بيننا تحت رايات الرجعية والتقدمية الكاذبة . . ونطلق عنهم أولاً بأول علومهم ومخترعاتهم ونبدأ من حرف الـ (ا) من حيث انتهوا هم إلى حرف الـ (ي) . . ونظل مقيدون إليهم في عربة السبسة وفي الأذيال . وإما أن نقبل البدائل المزيفة التي يروجونها بيننا باسم الحركات الإسلامية . والثورات الإسلامية . والجماعات الصليبية . ويشجعون عليها بالمال والتأييد والمساندة السياسية . . وما هي من الإسلام أو المسيحية في شيء . . بل هي نفس الشعارات الوثنية بطلاء إسلامي أو مسيحي . . وهدفها

ولن يحفظ علينا حياتنا وقوتنا وطاقتنا سوى أن ننتمى وننتسب من البداية إلى الله خالقنا ونمثل لقانونه وشريعته ونلزم طريقه ونجعله همتنا ومقصدنا . .

وذلك هو الفكر التوحيدي الذي يجمع شمل النفس . وشمل جميع الأنفس . وشمل جميع الأمم في مسيرة واحدة مباركة سبيلها العلم والعمل ومكارم الأخلاق تقرباً إلى الله باري كل شيء . وهي مسيرة لا تنعصب ولا ترفض ولا تحاصم . وإنما تقبل وترحب بكل مكتسبات الإنسانية عبر تاريخها . وتعمل على استثمارها وتنقيتها وتركيبها لتقديمها كما أرادها الله تورانية صافية . . وهي مسيرة أبد . . ومسيرة خلود .

وتلك هي حضارة أخرى مختلفة تماماً عن جميع الأشكال الموحدة للحضارة الوثنية الصناعية . . وهي ليست أبداً ما نرى حولنا في ثورات إسلامية . . أو حركات إسلامية حاقدة مسعورة . . أو جماعات صنيبية تنشر الفرقة والعداوات الطائفية . . فتلك وغيرها من انقلابات شيوعية . . وجماعات اشتراكية . . هي بعض ما يخطط لنا . . وبعض ما يصنع لنا في الخارج من أفكار معلبة . . ومؤتمرات مجبوبة . . وهي جزء من خطط التعمية وطمس البصائر وإغراق المنطقة في ضباب

التضليل وفي خوضاء الدعايات والشعارات المتصلة . . حتى لا نفيق أبداً على ينابيع النور التي في أيديها . .

فهل نفيق على حقيقتنا وهل نمسك بأول الخيط . . وهل ندرك عمرنا الحقيقي بطول الأزل والأبد . . وبعمق الخلود . . وبامتداد الكون كله المرئي منه والخي . . وهل ندرك نسبنا الشريف العظيم إلى الله بآزتنا بحكم استمدادنا للروح منه ورجعتنا إليه . . وهل ندرك معنى الآية القرآنية العظيمة .

(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقه)

هذا الجراز
سوف يغير العالم

لندن ١٨ الجمعة ٥ سبتمبر سنة ١٩٨٠:

اكتشفت آخر الليل أنى كنت جالساً طويلاً اليوم أمام التليفزيون لم أفعل شيئاً سوى الحلققة فى الشاشة الصغيرة التى ظلت تستدرجنى من برنامج إلى برنامج . من فيلم إلى رقصة . إلى أغنية إلى بدوة . إلى خبر . إلى استعراض . إلى سيفوفى . إلى ماتش . إلى مسرحية . إلى قصيدة حتى منتصف الليل وأنا فى سربرى معتقلاً باختياري . . بل ربما أكثر قليلاً من مجرد معتقل . فقد كنت طويلاً الوقت معتقل الحركة أيضاً معتقل الحواس . سجين الانتباه فى شاشة عرضها ٢٢ بوصة لا أستطيع منها فكاًكاً .

وحيثما كان السلام الملكى البريطانى يعزف لحن الختام كنت أسمع عيني وأتساءل عن تأثير هذا الجهاز السحري العجيب الذى قلب جميع الموازين فالتليفزيون الجيد أصبح تأثيره الآن عكس تأثير الكتاب

الجيد . . . فالكتاب الجيد يحرر الإنسان الذي يقرأه . أما التلفزيون
الجيد فيعتقل الإنسان الذي يشاهده . . . يعتقل جوارحه ويعتقل خيانه
ويقيد يديه ورجليه .

وساءلت نفسي . . . ترى هل هذه هي المعتقلات الاختيارية
الجديدة التي توضع فيها المجتمعات العصرية حيث يغسل عنهما بالأغاني
والرقصات وأفلام العنف ومشاهد الجنس ، ثم تبعاً بالتوجيهات
المطلوبة والدعايات المرغوبة .

وأى نوعية من الأجيال الجديدة يمكن أن تخرجها هذه الجامعات
التلفزيونية الأمريكية . . . لا أظن أنها يمكن أن تخرج النوعية القديمة
من الشباب الذي حارب وأقام إمبراطورية . . . ولا أظن أن الأجيال
الجديدة في أوروبا يمكن أن تحارب بحماس من أجل أية قضية . .
فالشباب رخوا مرفه ، وهو بعد عمل مرهق طوال الأسبوع لا يفكر إلا
في صحبة ممتعة وحضن دافئ وكأس مترعة يفرق فيها عطلة نهاية
الأسبوع .

والشباب الجديد في أوروبا يعمل بنشاط ليكسب بوفرة وينفق
بكثرة . وهذه هي العقلية المادية التي تسود العصر . . . لا تدع اللحظة
تفوتك . . . خذ منها أقصى ما تعطيه من كسب ومتعة ولذة . . . عش
أيامك قبل أن تمضي ولا تعود . .

تلك هي فلسفة اليوم التي يعيش لها وبها الشباب . . . بعد المصنع
الترىو وعلب الليل والمراقص ومبازل الويك إندي . . . فلسفة ينشرها
ويعززها ويروج لها جهاز خطير اسمه التلفزيون العصري .

جهاز خطير سوف يغير العالم كله . . . وسوف يجعل العهر على
الشيوع والانحلال أمراً عادياً ، واتباع الهوى بداهة وطلب اللذة
مشروعاً مثل بطاقة سكر التكوين .

وفي الجانب الشيوعي والاشتراكي من العالم حيث النظم شمولية ،
والحزب الحاكم واحد ومنفرد بالسلطة ، نجد الحصار الإعلامي في
التلفزيون بالغ الذروة في غسل الأبحاث وتفريغ العقول . وإعادة ملئها
على هوى الحاكم . وعلى قوالب النظام . وتكاد البرامج كلها تمشي
على جور مرسومة لا تفلت منها كلمة .

على حين أننا في الجانب الديمقراطي الحر من العالم حيث تتعدد
الأحزاب وتتعدد الآراء وتتعدد الصحف تظهر شواهد كثيرة لهذه
الحرية في البرامج التلفزيونية ، ويحد المشاهد أمامه أكثر من رأى
يستمع إليه ويختار منه . . . وهو بذلك يفلت من السجن السياسي
المضروب على العقول في النصف الشيوعي من العالم ، ولكنه يقع في
سجن شهواته بما تثير فيه برامج العري والجنس من رغبات مستعرة
تعطل عقله .

ونحن في الخالين أمام جهاز خطير له قدرة تشكيلية على العقول والأذهان . وهو مع التكرار والاستمرار سوف يخلق نوعاً من التعود على ألوان من البرامج الاستمتاعية يستحيل بعد ذلك تغييرها أو إيقافها . سوف تصبح أمام جمهور مثل طفل تعود على مصاصة أو لبانة إذا حاولت انتزاعها من فمه ارتفع عويله وصراجه .

ولو وقف مصلح اجتماعي يطالب بإيقاف هذه البرامج اللاهية وتحويل البرامج التليفزيونية إلى نوع من الجامعة الشعبية وتحويل الإعلام الاستمتاعى إلى إعلام تربيوى . . مثل هذا المصلح سوف يواجه بالطوب ومظاهرات الاحتجاج من الجمهور نفسه . جمهور الأغاني والقبلات والمسلسلات والرعب والدم والجنس والكورة . فمثل هذه البرامج أصبحت الآن أفيونة ومصاصة ولبانة يضغطها المشاهد في فمها ولا يستمتع بسمومها وينام على تحذيرها ولم يعد من الممكن انتزاعها منه إلا باستخدام القوة القهرية . والقوة القهرية سوف تلقى بنا إلى سجن أسوأ هو الحصار الإعلامى الذى يشكو منه النصف الشيوعى من العالم . . فنحن بين نارين : والمأزق يسير نحو حارة مد .

وهذا الجهاز السحري بسيله إلى إحداث تحولات في الوعي الإنسانى . متكون للأسف بالسلب وليس بالإيجاب .

ولن تكون أجيال التليفزيون القادمة أحسن بل أسوأ من أجيال ما قبل التليفزيون .

ويضايف من الأثر النفسى للتليفزيون . . أننا تلقى برامجنا وننحن في الفراش في حالة استرخاء كامل أو في كراسى وثيرة بالبيجاما وحولنا الأطفال يشربون بعيونهم كل حركة وكل همسة . . وهذه الحالة تجعل النفوس مفتوحة قابلة للتطبع بكل فكرة ترد عليها .

وقد بدأنا نشاهد الآن أطفالاً يرتكبون عمليات قتل وسطو . وطلبة بالجامعة يؤثفون عصابات . ويعرض العالم كله تنتشر عمليات العنف والخطف واحتجاز الرهائن وتفجير القنابل . . وفي المدن الكبرى في أوروبا لا تكاد تجد فتاة بعد السابعة عشرة محتفظة ببيكارتها .

وفي أمريكا يقول علماء النفس إن هذه نتائج طبيعية . فالشباب الأمريكى لا يبلغ الثامنة عشرة إلا ويكون قد شاهد أكثر من عشرة آلاف جريمة قتل واغتصاب وزنى وسرقة تمارس أمامه على شاشات التليفزيون . . فأى غرابة بعد هذا فى أن يفقد الجسم العارى حرمة . وأن يفقد القانون هيئته . وأن تفقد الأعراف الخلقية سلطاتها .

إن العين تألف الانحلال والفساد فيصبح من كثرة عرضه أمامها شيئاً مألوفاً لا غرابة فيه . . وتصبح القبلات والأحضان والمضاجعة أشياء عادية مثل المصافحة .

إن ضغطة بطرف البتان على زرار أصبحت كفيلة باستحضار كل
منتجات هذه المدنية العجيبة بعهرها وخلاعتها وقنها وفكرها وعلمها
وصلاحها وفسادها في لحظة .

وصحيح أن التليفزيون يعرض بالفعل فنونا رفيعة وأفكارا عالية
وهو يقدم الدين والقيم والعظائم والعبر إلى جانب الجريمة والجنس
والانحلال . . لكن الفساد يأق فيه مزوقا جذابا وهو يغازل النفس
بمشهياتها ، ويرأودها في ضعفها وهو يقدم لها وعدا عاجلا فوريا
باللذة . في حين يقدم الواعظ الديني وعدا مؤجلا ولا يجد معه
مشهيات الفن وزخرفة الشعر والموسيقى والأغاني التي يجدر بها
الحواس . . فالتلبث اللحظة الفاسدة أن تجرف أمامها كل المؤثرات
الطيبة . . وينام المشاهدون كل ليلة على الجانب اللذيد المغري من
المسألة .

نحن أمام جهاز خطير يدخل إلى المخادع وغرف النوم . وأمام برامج
تصبح من فرط التكرار من قبيل المناهج السلوكية المقررة التي ينشرها
الأطفال والشباب وتسرى في دمائهم مع الشاي والقهوة والسيجارة .
وتتحول إلى عادات لا فكاك منها . . ثم تتحول إلى سلوك ثم تصبح
طباعا وأنماطا وملامح عصر .

هل نحن أمام جهاز سيفير العالم . . ؟ ! ! قد يغيب البعض بأن

المشكلة قائمة حتى في البلاد التي شددت الرقابة على التليفزيون .
ومعت إقامة دور السينما العامة . . فرغم الحظر والرقابة والمنع ظهرت
فيها مصيبة أخطر هي أشربة الفيديو المثقلة والمهربة والأفلام الجنسية
تعرضها الشلل والعائلات المحترمة في بيوتها الخاصة . . وفيها من الغواية
والإفساد والفحش أضعاف مائة السينما المباحة . . ومن وراء هذه
الأشربة المهربة تقوم نخارة عالمية منظمة ومكاتب مافيا جنسية
متخصصة تعمل على شه وتسجيل وترويج هذه البضاعة المدمرة .
وتدفع مبالغ مغرية للممثلات المشهورات في مقابل دقائق من اللقطات
الجنسية الفاضحة لإثارة فضول المشتري واجتذابه للعصف سوف
نحاسة إلكترونية جديدة ضحاياها ملايين

وهكذا تنوع صنوف الإغواء التي يتعرض لها المواطن . فمن ينجو
من الإعلام الشيوعي اليساري يقع في حبال الإعلام الفاشي النازي .
ومن ينجو من غسل مخه في الناجيتين يقع ضحية الإعلام المنحل في
نظم عربية الديمقراطية . ومن يلجأ إلى البلاد المحافظة التي تغلق على
نفسها الأبواب والثواب وتحكم ترايس المنع والرقابة لا يسلم من تسلل
أشربة الفيديو وأفلام البورنوجرافى من تحت عقب الباب . . ومن وراء
كل هذا تقوم سوق المخدرات والكوكايين والمخروين وأقراص الزواج
وحقن الماكستون غورت شهبي الجو وتعد المناخ .

طوفان من المؤثرات يسير بنا إلى عصر سدوم وعمورة جديد . وقتئذ
يقف منها الحليم حيران . ويتساءل المتسائلون . . هل من حل .
وبرغم كل شيء . . وبرغم تحالف الظلمة على هذا العصر . . قانا
أرفض العنف كحل . . ولا أؤمن إلا بالوعى والحرية وإحياء الضحايا
والمناقشة العلنية المفتوحة وفتح النوافذ على العيوب والاعتراف بالتناقض
وعلاجها . لا رجوع إلى وراء . . ولا رفض للمكتسبات العلم
التليفزيون والسينما والراديو أدوات محايدة بريئة وهى علامات
تقدم . . وإنماهى تصبح علامات تأخر بما يوضع فيها

والحل هو توشيد الإعلام عن طريق مائدة مستديرة يدبر الحوار فيها
حكماء العصر وعقلاؤه فى محاولة لإقامة مبادئ جديدة للرقابة الواعية
على الكثرة المذاعة . أما عصابات المافيا الجنسية والمخدرات فتحارب
بأساليبها .

ثم يبقى بعد ذلك وقبل ذلك أن ينتصر كل منا فى حربه مع نفسه
أولا . ومن يخسر حربه مع نفسه يخسر فى كل الميادين . ولن ينحى
قانون أو نظام أو عصبة أمم . فهو قد خذل جميع القوانين حينما وضع
سلاحه واستسلم للهوى من أول معركة .

فمن هناك لينصر ذلك الذى لم ينصر نفسه .

وفى كتاب المواقف والمحادثات للتفرى يقول الرب لعبده :

« أهوى رسول من رسل بأسمى الشديد أرسلته إليك . وفى أهوى
نارى . فإذا جاءك جاءتك نارى فأدخلها . . قلت كيف يارب
أدخلها . . قال لا تستجر بعلم ولا بمعرفة فإذا استجرت بهما أسرك أهوى
وأسرهما . . واعلم أنه لا يجير من أهوى إلا أنا . . ولن تخرج من نار
أهوى بعلمك ولا بمعرفتك . . وسوف تقيم فى النار حتى تأكل النار
الجزء التالف من عقلك ومن نفسك . . فإذا أكلت النار ذلك الجزء
تظهرت وأدركت أنه لا يجير من أهوى سوى فصرخت إلى فجتك
وصرفت عنك نارى فلم تعد إليك » .

ويقول ربنا فى كتابه الكريم فى أجمل آيات التوكل .

(واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه . وأنه إليه تحشرون) .

[الأنفال ٢٤]

وذلك هو التدخل الإلهى اللطيف فى لحظات التردى حينما يشرف
الواحد منا على إهلاك نفسه فتأتى المشيئة الإلهية فتحول بين الواحد منا
وشهوة قلبه فتقذه .

وذلك هو الأمل الذى يفتحه الله للصالحين والمستنجدين حينما
تغلق كل الأبواب . وحينما يطعم الطوفان . وحينما لا تعود الحكمة تنجى
ولا العقل يفيد . وحينما يشاء الله حسن الختام . ادعوا معى بحسن
الختام .

المسلمون في يوغوسلافيا

مدينة موستار في رمضان ١٩٨٢

التكية الدراويش على منابع نهر بونا . . في قلب يوغوسلافيا . .
والمياه تنساب في مساقط وشلالات صغيرة . وتنعقد في دوامات
لتجري كدوائر من اللؤلؤ تحت قدمي . وعلى جدران التكية تندلي
مسابيح طويلة . وعلى السقف آيات قرآنية ورسوم وكتابات بالتركية
والعربية يعود تاريخها إلى أكثر من أربعة قرون منذ دخول الأتراك من
٤٥٠ سنة .

ومن النافذة أرى نهر بونا يخرج من أعماق مغارة في وسط الجبل
وينساب مثلجا باردا برغم الجو الشديد الحرارة .
غسلت وجهي الملهب بناء النهر المثلج وتوضأت واستقبلت القبلة .
من هناك إلى حيث القبلة أمامي من قلب مكة من أكبر
من ألف وأربعمائة سنة خرج رحلت يحملون كلمة لا إله إلا الله ليعلنوا

سكانها دفع الريح إلى شواطئ الأطلنسي والفارسي . ويعبروا النهر .
وليدخلوا من بوابة البلقان إلى قلب أوروبا . ومن مضيق جبل طارق إلى
إسبانيا . وعلى هذه الأرض مازالت آثار خطواتهم على الرمال .
ومن هذه المياه شربوا وتوضؤوا

لا لم يكن بالسيف دخول الإسلام إلى هذه الأرض . فقد جاء
هذا الدين بتجار مسلمون منذ القرن الحادي عشر إلى يوغوسلافيا
وآمن به البوغسلاف القدامى (في جمهوريات البوسنة واغرمسك
وكرواتيا ومكدونيا) اختيارا ومحبة قبل أن يأتيهم الأتراك غزاة . وقبل
أن يرتفع سيف أو ينطلق سهم . إن تاريخ الإسلام على هذه الأرض
قديم

وعلى هذا الجبل الشاهق لم يصعد جندي تركي واحد إلى دير
البوجوميل على القمة ، حيث اعتزلت طائفة من النصارى الأوائل
رفضوا المذاهب الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانتية . واعتصموا
بديانتهم الأولى الفطرية . لم يصعد إليهم جندي تركي واحد
ولكنهم هم الذين نزلوا من القمة مرحبين بسفراء لآله إلا الله . قائلين
في لمرحة . لقد كنا في انتظاركم . لقد قرأنا خبر نبئكم في إنجيلنا
وأسلموا جميعا من فورهم . ومازال الدير القديم على قمة الجبل يحكي
القصة . ومازال الطريق إلى الدير وعرا لا يستطيع أحد أن يتسلقه

وحينما انحسر الغزو التركي وضعفت الدولة العثمانية . واستولت
الإمبراطورية النموية على أوروبا . وفرضت مذهبها الكاثوليكي ثم من
بعد الحرب العالمية الأولى حينما تكونت مملكة صربيا . وفرضت مذهبها
الأرثوذكسي . ثم بدأت الحروب العنيفة بين الكاثوليك
والأرثوذكس . وبين الاثنين والمسلمين ظلت يوغوسلافيا مسرحا
للحروب يقتل بعضها بعضا لم ينقذها من افلاك إلا جنود تيتو من
جيش التحرير

بطول هذه الحروب لم نستطع السيف أن نترع كلمة لا إله إلا الله
من قلب أربعة ملايين مسلم . هم مسلمو يوغوسلافيا اليوم ولم يكن
ما حدث منذ ٤٥٠ سنة في يوغوسلافيا استعمارا تركيا . فلم يدخل
الغزاة الترك لينزحوا خيرات البلاد ولا معادها ولا كنوزها كما فعلت
إنجلترا وفرنسا من بعد . وإنما دخل غازي خسرو بك إلى سراييفو ليبنى
مسجدا ومكتبة ومدرسة إسلامية . وليخصص وقفا لختم المصحف كل
يوم يوزع ريعه على ثلاثين قارئا يختمون المصحف كل يوم . ومازال
هذا الختم مستمرا إلى اليوم في مسجد خسرو بك الكبير في سراييفو .
حيث يجتمع ثلاثون قارئا يختمون المصحف . وهو تقليد لا مثيل له في
أى مسجد في العالم . كما أنشأ خسرو بك تكية لإطعام الفقراء .
ولتقديم ودية للمسافرين وعلفا لحيولهم

ومكتبة غازي خسرو بك بها ١٥ ألف محفوظ من أنفس الكتب .
ومدرسة خسرو بك كانت تخرج الأئمة والوعاظ والعلماء . وكانت
تركيا تصف للمدرس اليوغسلافي نفس المرتبة التي تصف للمدرس
التركي في الأستانة .

وداماد علي باشا فاتح موريا (بوابة البلقان وأكبر قلعة في أوروبا في
ذلك الحين) هو الآن مدهون في كاليامبيجان (قلعة ميدان) وله
ضريح يزار ويلقبون القروش في ضريحه تبركا . وذلك لسمعته في عمل
الخير وجدة المظلوم ومعرفة المحتاج .

لم يكن الغزاة غزاة . وإنما حملة حضارة . ولكن الدين كتبوا
التاريخ كتبه على هواهم . وكانت فيه مصلحة في تشويه الحقائق .
ولقد ظلت المنطقة تعج بالحروب والفن والانعقادات حتى
جاء تيتو فاستطاع أن يوحد جمهوريات يوغوسلافيا الثانی ذات الملح
المتعددة (صربية وكرواتية وسلافونية البشناق) . والديانات المتعددة
(إسلام وكاثوليك وأرثوذكس وشيوعيين) تحت علم واحد وولا .
واحد ونص تيتو دستور على حرية المسلم في أداء شعائره والدية
لدينه . وكذلك حرية المسيحي وحرية الشيوعي . ويحفظ له مسمون
الجسيل ويقولون إنه أنقذ الإسلام والمسلمين من المصير الذي حاق به
في ألمانيا واجر وبولندا وروسيا

كما أنه أنقذ يوغوسلافيا من الشيوعية الستالينية . ومن خروب
نضائفة . ومن التبعية العمياء لروسيا أو أمريكا . واختار لها خطا
اقتصاديا خاصا بها هو دولة المؤسسات . وهو ذلك الخط الوسط
الدقيق بين ملكية الفرد وملكية الدولة . فالمؤسسات في يوغوسلافيا
ليست مؤتمة . ولكنها ملكية خاصة - جموعية - للعاملين فيها يعود
عليهم ربحها وخسارتها . وهذا يعطيهم الحافز للعمل والخدمة
الأحسن

وقد قرأ تيتو القرآن ثلاث مرات (في ترجمته اليوغوسلافية) .
وكانت آخر مرة في مرضه الأخير . كما أوصى قبل موته بألا توضع على
قبره النجمة الشيوعية . وبألا يكفن في الكفن الأحمر الذي يكفن به
الشيوعيون . كما رفض أن يوضع على قبره الصليب . وأن يدفن تبعا
لأى طقس مسيحي . وطلب أن يدفن في بيته بلا طقوس .
وألا يكتب على قبره أى كلمة سوى تيتو - ولد في كذا ومات في كذا
وذهب وذهب معه سره . ولا تعلم على أى عقيدة مات . ولكنه
ترك وراءه يوغوسلافيا المتحدة والسلام والحرية والعمار .

وراء بقاء كلمة لا إله إلا الله في يوغوسلافيا . وبقاء الإسلام حيا
في قلعة الإلحاد الأوربية جهود خارقة لجنود مجهولين . كما أن وراءه
خطيبا وتنظيما مستنيرا متقدما متطورا

والوحدة الإسلامية في يوغوسلافيا هي المسجد . والمسجد مجلس إسلامي يديره . ثم إن لمجموع المساجد في مدينة بيجينا أعلى . ثم إن لمجموع المدن بيجينا في كل جمهورية من الجمهوريات اليوغوسلافية . وهذا المجلس النيابي ينتق منه مجلس إسلامي تنفيذي يسمى « المشيخة » . والمشيخة الإسلامية هي الوحدة الفعالة التي تقوم بجميع الأعمال الدينية من تعيين الأئمة والوعاظ والخطباء . إلى إنشاء المدارس الإسلامية . إلى إصدار النشرات والمجلات والكتب . إلى بناء المساجد وتعيين المفتين . ويرأس المشيخة رئيس مختار من المجلس النيابي وفوق الكل رئيس العلماء .

وفي المشيخة الإسلامية لجمهورية البوسنة والهرسك وكرواتيا وسلوفينيا ومقرها سراييفو . التفت برئيس المشيخة الدكتور أحمد سمايلوفتش . وهو متخرج من الأزهر . وحائز للدكتوراه على رسالة نادرة عن الاستشراق . قال لي الدكتور أحمد :

- في الجمهوريات اليوغوسلافية أكثر من ألف مسجد وجامع وفي مشيخة سراييفو وحدها أكثر من ألف واعظ ومرشد ديني . وعندنا هنا في سراييفو مدرسة ثانوية لتخريج الأئمة يدخل فيها الطالب من سن الخامسة عشرة . ويعيش في حضانة كاملة وإشراف ديني كامل من اللحظة التي يصحو فيها إلى اللحظة التي يرقد فيها لينام . وفي

لمدرسة عتابر للأكل وعتابر للنوم . وفيها مكتبة . وعلى الطالب أن يصلي جميع الفروض في المسجد في أوقاتها . وأن يتابع ويقرأ كل ما يستجد من العلوم المفيدة .

وفي سراييفو أيضا معهد ديني مماثل للثبات لتخريج الداعيات المسلمات . وقد جمعت إحداهن واسمها سعادة سينا . تقرأ القرآن وتجوده في مسجد تشاي تشا بصوت جميل ساحر . وحوفا رواد المسجد يستمعون في خشوع . وقد أغضبوا عيونهم واخضلت لحاهم بالدموع . وقد أنشأت المشيخة أيضا كلية للدراسات الإسلامية

يقول الدكتور أحمد سمايلوفتش : نحن نعيش في قلب أوروبا في مناخ ثقافي مستير . يعج بالتيارات الفكرية . وعلى المسلم أن يقرأ ويتعلم ويفتح على جميع التيارات ليعرف كيف يتعامل معها في سلام . وكيف يرد عليها بمنطق وموضوعية ويعلم دوما تعصب

عن ترجمه ونطبع ونشر هنا كل جديد في الفكر الإسلامي من جميع اللغات . وعندنا ناد للشباب يلتقي فيه الشباب من الجنسين في ندوات ولقاءات فكرية أسبوعية . يدور فيها الحوار في كل ما يشغل الناس من مشاكل العلم والدين والمجتمع .

وتصدر المشيخة مجلة نصف شهرية هي البعث الإسلامي . وأخرى شهرية هي الفكر الإسلامي . هذا غير مجلة زمزم التي تصدرها طلاب

معهد خسرو بك كل شهرين . وقد أنشأ مركز إسلاميا في مدينة
لوبليانا . ونحن الآن نقوم بإنشاء مركز ثان في زغرب قدرت تكاليفه
المبدئية بسنة ملايين دولار .

والاستماع إلى الدكتور أحمد سمابنوفتش متعنا . فهو شاعر من
الحماس والحركة والنشاط والعمل الدائب . وهو مثال لما قد نروج
العجيب بين الروح الأوروبية والقيم الإسلامية الرفيعة . فأنت ترى فيه
الخدمة والمبادرة والإيجابية التي تراها في الأوربي . كما ترى فيه السجادة
والتواضع والخلم والكره والإيمان وضمان القلب ووداعة النفس التي
لا تراها إلا في المسلمين .

وهو نموذج جديد مبته بصورة جديدة سوف تنشأ من نروج
الحضارة الإسلامية باختصار العلمة الأوروبية . وهو ورفاقه
المتصلون . عبد الرحمن هركتش . وحمدي يوسف سباهتش .
وسعيد إسماعيل كتش وشوفي عمر ناشيت وغيرهم من الكتبة الذين
قابلت وعرفت . هم طلائع جيل جديد من الصفوة منهم بالنسبة
لأوروبا مثل الصفحات الأوائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلى في مجتمع
الإسلام الأول .

قال لي حمدي يوسف سباهتش مفتي بلغراد :

- كانت أعنية المهدي التي تهديني بها أمي هي كلمة لا إله إلا الله

تغنيها في حنان . وهي تهزفي بين ذراعيها حتى أنام . وكان أول
ما نطقت به شفتاي . وأنا رضيع هي كلمة لا إله إلا الله . وكان آخر
ما قالت لي أمي وهي على فراش موتها : يا ولدي أهون علي أن تموت
مؤمنًا شهيدًا من أن تعيش وزيرًا كافرًا .

قال هذا ودعمت عيناه وهو يعود بخياله إلى مشهد وفاة أمه الأخير .
قال لي : لقد جئت إلى بلغراد مع زوجتي المصرية ، وليس فيها
إلا مسجد واحد بقي من ٢٧٣ مسجدًا هدمت كلها وأزيلت . . وحتى
هذا المسجد الواحد كان مغلقًا . وكان المفتي السابق يلزم بيته لا يبرحه
خوفًا من الناس .

قال وعيناه تلمعان . ولففت عمامة المفتي على رأسي . ومشيت في
شوارع بيوجراد أتسم لكل من ألقاه . وألقى إليه بتحية الإسلام
وأحبنى الكل . وأحببت الكل . الكاثوليك والأرثوذكسي
والشيوعي والمسلم .

وفتحت المسجد . ولم يتسع لكثرة المصلين في العيد . فأخذناهم
على ثلاث نوبات في كل مرة مئة .

ولا أنسى ما رأيت من أمر هذه الصفوة الطيبة في سرايفو يوم
العيد . وقد اجتمعوا في بيت مدرسههم وأستاذهم العجوز دكتور أحمد
توزلتش أستاذ اللغة اللاتينية واليونانية ٨٩ سنة . وتكلموا ليجلسوا

معهد خسرو بك كل شهرين . وقد أنشأنا مركزاً إسلامياً في مدينة
لوبليانا . ونحن الآن نقوم بإنشاء مركز ثان في زغرب قدرت تكاليفه
لمبدئية بستة ملايين دولار .

والاستماع إلى الدكتور أحمد سمبلوغيثش متعة . فهو شغوف من
الحماس والحركة والنشاط والعمل الدائب . وهو مثالي تادو هذا الزوج
العجيب بين الروح الأوروبية والقيم الإسلامية الرفيعة . فأنت ترى فيه
الهمة والمبادرة والإنجابية التي تراها في الأوروبي . كما ترى فيه تسامح
والتواضع والفهم والكرم والإيمان وطمأنينة القلب ووداعة النفس التي
لا تراها إلا في المتدين .

وهو نموذج جديد مبني بحضارة جديدة سوف نشأ من تزاوج
الحضارة الإسلامية باختصار العلمية الأوروبية . وهو ورفاقه
المتاضلون : عبد الرحمن هوكتش . وحمدى يوسف سباهتش .
وسعيد إسماعيل كتش وشوفي عمر باتشيت وغيرهم من الكتبة الذين
قابلت وعرفت . هم طلائع جيل جديد من الصفوة مثلهم بالنسبة
لأوروبا مثل الصحابة الأوائل في بكر وعمر وعثمان وعلي في مجتمع
الإسلام الأول .

قال لي حمدى يوسف سباهتش مفتي بلغراد :

كانت أغنية المهدي التي تبهمني بها أمي هي كلمة لا إله إلا الله

تغنيها في حنان . وهي تهزني بين ذراعيها حتى أنام . وكان أول
ما نطقت به شفتاي . وأنا رضيع هي كلمة لا إله إلا الله . وكان آخر
ما قالت لي أمي وهي على فراش موتها : يا ولدي أهون علي أن تموت
مؤمناً شهيداً من أن تعيش وزيراً كافراً .

قال هذا ودمعت عيناه وهو يعود بخياله إلى مشهد وفاة أمه الأخير .
قال لي : لقد جئت إلى بلغراد مع زوجتي المصرية ، وليس فيها
إلا مسجد واحد بقي من ٢٧٣ مسجداً هدمت كلها وأزيلت . . . وحتى
هذا المسجد الواحد كان مغلقاً . وكان المفتي السابق يلزم بيته لا يبرحه
خوفاً من الناس .

قال وعيناه تلمعان : ولففت عمامة المفتي على رأسي . ومشيت في
شوارع بيوجراد أنسم لكل من ألقاه . وألقي إليه بتحية الإسلام .
وأحبنى الكل . وأحببت الكل . الكاثوليك والأرثوذكسي
والشوعي والمسلم .

وفتحت المسجد . ولم يتسع لكثرة المصلين في العيد . فأخذناهم
على ثلاث نوبات في كل مرة ستائة .

ولا أنسى ما رأيت من أمر هذه الصفوة الطيبة في سرايفو يوم
العيد . وقد اجتمعوا في بيت مدرسهم وأستاذهم العجوز دكتور أحمد
توزلتش أستاذ اللغة اللاتينية واليونانية ٨٩ سنة . . . وتكلموا ليجلسوا

في ظله وكأنهم يتظللون في ظل سديانة ، وهو يذهب ويعود في نشاط
وفي يده أطباق الكعك يقدمها لهم في حب وأبوة وهم يأكلون من
يده ، ويدعون له بالصحة والعمر ، وينظرون إليه في احترام وإجلال
ومودة .

قال لي الدكتور أحمد سميلوفتش هامنا وهو يشير إلى أستاذه :
إن سيدنا يحفظ القرآن كله عن ظهر قلب مع أنه لا يعرف
العربية

ولما رأي أبي دهشني قال : هذا حال الألوف من أهل
يوغوسلافيا . يحفظون القرآن وينلونه ويكونون دون معرفة بالعربية
وهم يسمون الذي يحفظ القرآن حاجي حافظ .

وكنت مازلت على دهشني . أعجب في نفسي ، ماذا يعني
عندهم اللفظ القرآني حتى يكون لتلاوته . هل هو الإيقاع . أو
النغم . أو السر الإلهي الذي وراء الإيقاع ووراء النغم ووراء الحروف .
وقد ظلت على دهشني حتى رأيت بنفسى الأعداد الغفيرة من
اليوغوسلاف الذين يصلون يوم العيد ويكون في أثناء الاستماع إلى تلاوة
القرآن دون أن يعرفوا من العربية حرفاً

وخطباء الجمعة يبدأون الخطبة بالعربية . ثم يترجمون ما قالوا
باسهاب إلى اللغة اليوغوسلافية

وهناك محاولات دائمة ومستمرة لتعليم اللغة العربية ونشرها
ونكس يمان الناس ثم ينتظر . وإنما عانقوا لا إله إلا الله واغتندوه
بأرواحهم . وأمنت قلوبهم وأطمأنت نفوسهم . وشبعت أرواحهم
وقالوا : نعم فيما بعد وتشتع عقولنا فيما بعد

وهنا يأتي دور المشيخة الأسطورية في نشر الفكرة الإسلامية
وترحمتها وتوصلها إلى الملايين العطاش . وإلى العقول الملهفة التي
تريد أن تعرف ماذا في هذا القرآن الذي سحرها

رسالة شاقة حملها هذا النفر القليل من الصحابة الكرام يبدأون
من الصغر من اللوح الأردواز والأجدية . ويمشون مع الناس حرفاً
حرفاً

وأكبرت فيهم هذه الروح . ورأيت فيهم لونا من الإسلام الأول في
نفاثه ومضربه وبكائه وطهارته
ولاشي . يشبه ذلك إلا طبيعة يوغوسلافيا ذاتها حباها وأوديتها
وينابيعها العذبة . وزروعها الخضراء وغاباتها الكثيفة . وورودها
الزاهية . وسماؤها الصافية

والماء يتفجر من كل مكان بارداً مثلجا نقياً عذباً من تحت
دسبوت

جبل كبر مضطرب غير مصنوع . تغسله الأمطار وتصفقه بد

الرياح . كان شيئاً مختلفاً عن جبال النسا الذي رأيته فيما بعد .
ذلك الجبال المصنوع . فالأشجار والحشائش والغابات في تلك
صفقتها يد (الكوافير) البشرى . وهندستها وخطتها يد مهندس
الديكور . مثل وجود النساء هناك من الحواجب مرسومة بالتملح
والحدود مغطاة بالمساحيق . وفي يد كل امرأة كلب هو الآخر مصنف
الشعر .

وبين حدود النسا وحدود يوغوسلافيا دقائق . ولكن كل منهما عالم
غير العالم وناس غير الناس .

وعشت في النسا وقلبي معلق بالصحة الكرام في سرايفو . وحيالي
مازال يصغي إلى صوت سعادة سربا التي سمعنا نقرأ القرآن في مسجد
تشاى تشا . والعيون حوفا مغمضة واللحم محضلة بالدموع
وشعرت أنى تركت أهلى وعشيرتى هناك .

وتحيت لورابت أحمد سابلوفتش إلى جوارى لأكله

وكنيت ما زلت أسمعه يقول لى :

- لماذا تريد أن تركنا ونذهب إلى النسا . وماذا عندهم في النسا

مما لا يوجد عندنا ؟ عندهم جبال وعندنا جبال . عندهم غابات
وعندنا غابات . عندهم عيون معدنية وعندنا عيون معدنية . نعم
يا عزيزى أحمد وتلك أوروبا . وهذه أوروبا

ولكن مع ذلك كنت أشعر أنى أمشى في قارة أخرى . الجبال غير
جبال . والغابات غير الغابات . والناس غير الناس . ويرغم أنى
وجدت الصحة الكريمة مع عشرات من المصريين الذين صادفهم في
النسا (وفي النسا خمسون ألف مصري يعمل أكثرهم في بيع
الصحف) وكنيت أجد المودة المصرية والتكئة المصرية والكرم المصرى
في كل مكان . ويرغم أنى وجدت الجبال المهندمة . والأشجار المصفقة
المقصوفة . كأنما خرجت من تحت مقص الكوافير سقراط . إلا أنى
ظلمت أفتقد شيئاً في الدنيا حولى . وفى الجو وفى الناس وفى الحياة
إن النسا أشبه بفندق جميل أو قاعة موسيقى . أو صالة رقص
أو مدينة ملاهى م وكل واحد يعمل ليكسب ويستمتع . والحياة عند
الكل هى الهدف والقيمة . ماذا تأكل وماذا تشرب ؟ ومن تصاحب
وأين تذهب هذا المساء ؟ وفى أى حفل تنق بنفسك آخر الليل ؟ !
هنا هو ما يشغل البال . وبعد ذلك لا شيء .

ولكن عند أصحاب في سرايفو كانت هناك أشياء أخرى كثيرة
تشتغل بها . وبعض هذه صحي بالنسبة لهنية وه يفكر في المسهرة أو
سكرتيرة أو حصن المدافى . وراح يكسح ليوصل إلى الناس معنى
الروحانية . أو يحبرهم حقيقة . أو ضاح في كدحه زهرة
بعد وسنى لشباب . يعمل هذا دون شعور خرماني . ودون أن يغبض

الآخرين الذين سبقوه إلى المتعة . وإنما هو يكدر بلذة وطمانينة .
 ويشعر بالإشفاق على كل الذين يستمتعون بغفلة . ويتمنى لو استطاع
 أن يوقظهم . . وهو موقن أنه يموت فيلقى ربه فيسأل . وهذا اللقاء
 عنده هو كل شيء . وهل بعد الله شيء أو قبله شيء ؟ ! وهل
 يساوى الله شيء ؟ ! ذلك هو الإيمان البسيط القطري الذي يغير
 الحياة .

والإسلام ليس أكثر من طريقة حياة . إنه ليس شعائر ولا مناسك
 ولا أزياء ولا حوقلة ولا بسملة . وإنما هو طريقة حياة ورؤية وتدقيق
 وسلوك وخلق .

ولهذا كانت سرايفو قارة مستقلة بذاتها في قلب أوريا . مستقلة
 بأهلها وبأسسها وعاداتها وسلوكياتها .

سلام على سرايفو

وسلام على أحمد سمايلوفتش وصحبه في العالمين

على شاطئ رودس

رودس في ١٠ أبريل سنة ١٩٨٢ :

كنت أنقل أصابعي في كسل بين المحطات على الراديو الترانزستور
تصغير في كفي . وأستمع إلى الأغاني اليونانية . . كانت الألحان مزيجاً
عجيب من المواويل المصرية . والفولكلور الصعدي . والتواشيح
الأنسية والفلامنكية الأسباني . / وإيقاعات الجرك والرقصات
الأمريكية المجنونة . وفي محطات أخرى أنغام السيمفوني والأوبرا وماريا
كلاس

وكانت الصحيفة اليونانية في يدي تمتلئ بالمانشطات الحمراء عن
مظاهرات الحزب الشيوعي التي تعطل الحزب الحاكم (وهو الحزب
الاشتراكي) بالمزيد من التأميمات . . وصور عن مسيرات الشباب
تحمل الأعلام الحمراء . وتمثيل لينين وماركس وإنجلز . . وفي مكان
آخر عناوين بارزة لثورة المضادة التي تجري في الحفاء . والتي يقودها

أصحاب المصانع . . عشرات المصانع أعلنت إفلاسها وأغلقت أبوابها
وسرحت آلاف العمال . شركات النقل البحري توقفت عن العمل
بسبب مقاطعة السوق الأوروبية المشتركة للنقلات اليونانية الضخمة
(كأسلوب ضغط على النظام الاشتراكي القائم) . . وفي صفحة
البورصة هبوط حاد لأسعار الدراخمة اليونانية . وارتفاع حاد لأسعار
الدولار . . وأعمدة كثيرة عن البطالة والبيروقراطية وهبوط الإنتاج .
كان كل شيء يتحدث عن حيرة هذا البلد من بلدان العالم
الثالث . وتخطيه بين النظام الرأسمالي والنظام الشيوعي . وما يعانيه من
شد وجذب بين الشرق والغرب وضياعه في فلك القوتين الأعظم

أمريكا وروسيا . . شأن كل دول العالم الثالث

ولكن برغم كل شيء . . فقد كانت الحياة تبدو أوروبية غربية في
ظاهرها . والشارع اليوناني يبدو كشوارع لبنان . لا يتسمى لسياسة
ولا لمذهب سوى الربح وبأية وسيلة .

واليوناني العادي يتاجر في كل شيء . حتى في تاريخه وماضيه .
ويصنع من حضارته القديمة بوتيكات ودكاكين وأسواق ومعارض
ومتاحف وسوبر ماركت وبازار .

السياحة هنا هي بئر البترول الوحيدة التي تعيش اليونان من
عائداتها . والسياحة لكي تكون سياحة ناجحة يجب أن تكون بلا لون

ويلا طعم وبلا رائحة . تكلم كل واحد بلغته . وتلبس لكل واحد لباسه
وتقدم لكل واحد مشربه .

ولذلك نسمع اليوناني العادي يتحدث عن فوز الحزب الاشتراكي
بأنه سقطة ما كان يجب أن تحدث . ويقول لك : ما لنا نحن وما
روسيا . ولماذا ننحاز لليبار أو لليمين . نحن نتعامل مع الكل . .
وبلد سياحي يرحب بالكل . ثم يضيف قائلا في ثقة : بأن الحزب
الحاكم جاء ليفشل ويرحل . وأنه لن يعمر طويلا . وأن اليونان
لتصبح اشتراكية لا بد أن تخسر نفسها وشخصيتها ثمنا لهذا التحول . ثم
لا تتحول بعد ذلك لشيء يذكر .

أما لماذا فاز الحزب الاشتراكي ؟ . . بمصمم اليوناني شفته
ويقول : جنون التغيير عند الشباب : مجرد التغيير . مجرد الملل من
الوجوه القديمة . وعيب الشباب أنه عاطفي يصدق الخطب . ويصدق
الشعارات .

إنهم يكذبون . . كلهم يكذبون . ولكن من كثرة ما كذبوا بدءوا
يصدقون أنفسهم . هذه أمور تحدث في أحسن العائلات .
هيه . . ما رأيك . . تشتري تمثال أفلاطون إنه أوبال فخم .
وماذا تقول في هذا التمثال الآخر . إنه لديدوجين صاحب المصباح
الشهير الذي كان يبحث عن الحقيقة بفانوس في عز النهار

بوتيك . ورودس كلها بوتيك جميل على البحر

وكانت السويدية الشقراء على يميني تطلب هي وصاحبها بضعة
تمثيل لإله التناسل . واختارت المثال الكبير صاحب أكبر عضو
تناسلي . وقال لها اليوناني وهو يتسم : هذا كبير آلهة التناسل وله في
رودس معبد قديم . . وكانوا يعبدونه في الماضي ويقدمون له القرابين
قالت وهي تضحك وتضمه إلى صدرها : صدقني ! يتغير الأمر
كثيراً فهو مازال يعبد إلى الآن وحياتك . . . وله معابد كثيرة بعدد غرف
النوم في كل مكان

وعادت تضحك مرددة في دلع : هذه هي الصلاة الوحيدة التي
يحافظ عليها الكل وفي المساء شاهدتها وصاحبها في الفندق وكانا
يتملمان زحاجة شهابيا .

وفي الصباح كانا ممددين في الحديقة عاريين تماماً يأخذان حماماً
شمسياً . أولعها كانت صلوات الصباح . هذا العنم القديم إنه
التناسل .

ظاهرة (خنوميفي)

رجل يبدأ حياته في الخائن فيفقد أمة ويخوض حرباً ويغير الخريطة
جغرافية والتاريخ . ظاهرة حيرت الأفهام واختلفت في تفسيرها الخصم
والصديق

قال الخصوم هو رجل روسيا تخرب به المنطقة . وتستنفذ طاقاتها
وافتصادها باخروب . وإنه المرحلة التي تأتي بعدها الشيوعية . وإنه
لوسيلة الذكية التي تستعملها روسيا لتنفر الشعوب من الدين ورجاله .
ويمنح الكاين ذراعيه بعد ذلك للفكر الشيوعي اللاديني . واستشهدوا
عن كلامهم بأن ٩٩٪ من السلاح الذي يخارب به الخوميني سلاح
روسي يأتيه عن طريق وسائط عربية وسلاح إسرائيل أيضاً . فكيف
يعقل أن تضرب روسيا الإسلام في أفغانستان وتنصره في إيران ؟ وكيف
يعقل أن تكون إسرائيل نصيراً للمسلم ؟

وقال الأصدقاء : هذا تشويه للرجل . فلا يمكن أن يكون رجل
روسيا . ثم يخوض حرباً ضد الشيوعية في بلاده . ويستدرج الحزب

الشيوعي « مجاهدي خلق » إلى مذبحة دموية يستأصل فيها شأفته
لا يساوه ولا يهادن . . . إنه الإسلام . فالشباب الذي يحمل كفته
ويذهب للحرب يقاتل حتى الموت تحت راية لا إله إلا الله لا يعرف
غيرها راية .

وقال خصوم آخرون : بل هو رجل أمريكا . . . فلولا خذلان
أمريكا للشاة لما استطاع الخميني أن يقف على قدميه . ولو تحركت
أمريكا والثورة الإيرانية في المهد لأجهضتا .

وقالوا : هي لعبة الأمم . فمن مصلحة روسيا وأمريكا وأوروبا
الخلاص من أكبر قوتين عسكريتين في المنطقة . ومن أكبر ترسانتي
سلاح وهما العراق وإيران . وهذا استدرجوا الاثنين إلى مذبحة . وضرو
يمدون الحرب بالوقود والسلاح . ويشعلون النار كلما خبت رادوها
سعيًا . . . كما استدرجوا الأموال العربية إلى هذه الخفرة . واستنفرو
الثروة النفطية لجميع الجهات العربية التي تساعد العراق . والتي تساعد
إيران . ومازال كل بلد عربي يدفع . ومازال الخفرة تملأ والامتناع
مستمر ولا يؤذن بنهاية . . . وهي لعبة تستفيد منها أمريكا وروسيا وأوروبا
وإسرائيل والعالم شرقه وغربه . بل إن القضاء على هذه القوة
العسكرية العراقية . والقوة العسكرية الإيرانية هو ضمان وأمان وراحة
باللجيران العرب الضعفاء . والأقل تسليحاً على شاطئ الخليج

هي ذن مقننة يستفيد منها الكل القريب والغريب . . . ولهذا يكت
عيب الكل ويساعد فيها الكل .

كل الظواهر التاريخية أعقد من أن تصلح لها التفسيرات البسيطة
المذبحة . والتاريخ مجموعة عوامل شديدة التداخل وشديدة
التعقيد . وقد يبدو في الظاهر أن روسيا وأمريكا يستعملان الرجل
نصالحهم . ثم تنكشف الحقيقة فإذا بالرجل هو الذي استعمل الاثنين
يصل إلى غايته . والفرق شعرة دقيقة بين أن تكون خادعاً
ومخدوعاً وهو فرق لا يستطيع أن يتبينه ذكاء صحفى

وقالوا : إن الرجل هو الفتنة الكبرى التي حافت بالإسلام . . . وإنه
هو الإمبراطورية الساسانية الفارسية تعود من جديد في عبادة لا إله إلا
الله . لتقسيم الإسلام إلى شيعي وسني بقتل كل منهما الآخر . فلا تفوه
تلاسلام بعد ذلك قائمة . والقائون بهذا لم يكتفوا بانتهام العمل بل
نعمر فيه أيضاً

هل ما يجري في الوطن الإيراني ثورة إسلامية على وجه الحقيقة ؟
أو هي ثورة سياسية تستخدم الإسلام ؟ ! أو هي أطماع طبقة جديدة
تريد أن تحكم ؟ !

هل يقصد قادتها وجه الله ؟ أو يقصدون السلطة ؟ ! لا أحد
يستطيع أن يجيب عن هذه الأسئلة إلا ظناً وتخميناً . ولكن المؤكد أن

تحشيد الشعب يتم بشعارات إسلامية واستنفار الألوف للحرب . يحدث
بشعارات إسلامية . . واستجابة القلوب لصرخة الجهاد يحدث بفعل لا
إله إلا الله في هذه القلوب ، والقوة التي غيرت مسار الحرب وصعدت
للدمار . وواجهت الموت وقلبت الهزيمة انتصاراً هي فعل لا إله إلا الله
في المقاتلين . . وهذه الظاهرة هي التي أفرغت الغرب وأدهشت
المراقبين الأجانب . وأطلقت العقل الأوربي يبحث في هذه الظاهرة
التي أسموها ظاهرة الحمقى .

هل يعود الإسلام قوة عسكرية متفوقة كما كان حينما هزم الفرس
والروم ؟ هل تعود الدولة الإسلامية الموحدة لتصبح خطراً على أمن
أوروبا وأمريكا وروسيا ومعها هذه المرة كتوز الطاقة والدولار .
والأعداد البشرية الهائلة ؟

يقول توماس ليهان : إن هذا الفرع ليس له ما يبرره . . وإن
الدولة الإسلامية الموحدة ستظل دائماً حلماً مستحيلاً براود المسلمين . .
وإنها انتهت بانتهاة خلافة عمر بن الخطاب . ولم تتكرر ولن تتكرر .
وإن المصالح بالنسبة للدول والحكومات العربية أثبتت على مدار
التاريخ أنها أقوى من حافر الدين . فلن تقبل مصر ذات الألف مسجد
أن يحكمها خليفة في بغداد باسم الإسلام . فعندها إسلامها الذي تعز
به . ولن تقبل وصاية من أحد . ولن تقبل الحجاز أن يحكمها خليفة

ير في باسم الدين . وهي نفس أرض الدين وكميته . . وكل شعب
عرف الآن يكاد يتفرد بتقاليده وعاداته وشخصيته . . وما حدث في
الماضي كان أن بسط الإسلام سلطانه على أرض الكفر والشرك . ووجد
دويلاتها تحت رايته . . أما اليوم فالدول العربية هي دول إسلامية
بالفعل . لها مصالحها ولها استقلالها . ولا يوجد مبرر لأن يأتيها الإسلام
حاكماً من الخارج . . ويقول توماس ليهان : إن ما حدث تاريخياً كان
العكس . فقد حاربت الدول الإسلامية بعضها بعضاً بدافع المصلحة
بأنكز مما حاربت دول الكفر بدافع نشر الدين . وكان انقسام الإسلام
إلى سنة وشيعة وخوارج ومعتزلة . وإلى غيرها من المذاهب سبب تفرق
بأنكز مما كان سبب تجمع .

والخليفة المرتقب الذي يراه المسلمون في الحلم . والذي تسلم له كل
الحكومات مقاليدها . وتنقاد له كل الشعوب مختارة لا بد أن يكون نبياً
أورجل معجزات مؤيد بالخوارق التي نعوذ بها كل الجبابرة راعمة . وقد
انتهى زمن النبوات كما انتهى زمن المعجزات . وبالتالي لا يبقى أمل
ولامسبيل إلى تحقيق حلم الدولة الإسلامية الموحدة .

يقول توماس ليهان : إن البعث الإسلامي في بلد لا يستتبع
بالضرورة عداً لأمريكا . . والسعودية كمثال هي بلد إسلامي صديق
لأمريكا . وكذلك تركيا الإسلامية هي الأخرى حليفة لأمريكا .

وباكستان الإسلامية مثال ثالث . فلا داعي لهذا الفرع الأمريكي لكل هبة إسلامية .

وإذا سلمنا مع توماس ليمان بالصعوبات التي حالت تاريخيًا - وسوف تحول مستقبلًا - دون عودة الإمبراطورية الإسلامية خلف راية الخليفة الواحد . فإن هناك لونا آخر ممكنا من ألوان الوحدة ، هو « اتفاق القول » بين مجموع الدول الإسلامية وعزمها الموحد برغم اختلافها وتعدد مصالحها ، وهو اتفاق حدث في حرب ١٩٧٣ وكان وراء العبور والانتصار . وهذا الاتفاق والاتحاد قد يأتي في حبه ويؤدي رسالته ويصل إلى أهدافه بأكثر مما تستطيع دولة موحدة تعمل وراء خليفة واحد ، وتأتمر لأساليبه القهرية . وهو أمل يكفيننا كحلم قريب ممكن التحقيق .

ثم من أولى بالفرع ؟ ! هم كدول كبرى نووية ذرية بفرعون منا نحن الدول المتخلفة الضعيفة الفقيرة . أم نحن منهم . وهل هذا الفرع الغربي والشرقي كان دافعهم طول الوقت على هذا التفتيت المستمر للقوى الإسلامية ؟ ! وهل تقف أهدافهم عند مجرد إحباط فكرة الإمبراطورية الإسلامية والدولة الموحدة أو أنها تمضي لأكثر من ذلك . . تمضي إلى الإفكار المستمر لهذه الدول لتعيش تحت مستوى الوعي طول الوقت وطول التاريخ ؟ !

إن ظاهرة الخوميني التي اختلف فيها الخصم والصدیق . والتي تضربت فيها الآراء . هي ظاهرة محيرة أقف أمامها عاجزا عن القطع برأي . فالإذاعات التي تصلنا من طهران هي ألوان من البروباجندا ينطبق عليها ما ينطبق على البروباجندا الخزبية من مبالغات . ومائبته الإذاعات الأجنبية وما يتدفق من الوكالات الصحفية الأجنبية . قد يكون كلاما ملفقا تمليه الدعايات والأهواء والمؤتمرات الدولية . وخفيئة ضائعة لن يخلوها إلا الزمن والتاريخ . أن ما يجري في إيران علامة استفهام

والخوميني نفسه ذلك الرجل الذي بدأ حياته في الثمانين هو علامة استفهام أكبر . ولكن الفرع الغربي أمام هذه الظاهرة . وتدفق نشدات والكتب والبحوث عن الإسلام ماضيه وحاضره ومستقبله . وراقبون ورجال المخابرات والصحفيون الذين يتقاطعون أرتالا على نواحي العربية لتقصي ظاهرة الخوميني . وتحسس التيار الإسلامي في منطقة هم المؤرخ الذي يستوقف النظر . والذي يكشف عن المدى بعيد الذي استهدفت فيه هذه المنطقة للمدسات والمؤامرات بدافع خوف المستمر من الإسلام

مطر واحد من أنوار الخوميني في كتابه الحكومة الإسلامية وقفت أمامه حذيرا . هو ما قاله عن إمام الشيعة : « إن من ضروريات

مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب . ولا نبي مرسل . وهو ما يستوجب طاعة الجميع له . بل إن جميع ذرات الكون بخلافه وسماواته تخضع لولايته وسيطرته ، [ص ٥٢]

ومثل هذه الدعوى التي يقول بها الخوئي ترفع الإمام إلى درجة العصمة المطلقة . وتكاد تجعل منه إلهاً معبوداً تأتمر بأمره جميع ذرات الكون . وتعلو بمقامه فوق مقام الأنبياء المرسلين والملائكة المقربين وهو كلام لا يريح .

فمثل هذه الدعوى يمكن أن تكون فتنة أخطر من كل ما أتى بها شياطين الشرق والغرب من فتن . ويمكن أن تؤدي إلى فساد لا يعطونه فساد . وليس بعد ادعاء الألوهية فساد ولا إفساد . فكيف راجع مثل هذا الإمام لو ظهر علينا ؟ وكيف نسائله وهو أعلى مقاماً من الحى المرسل والملك المقرب ؟ وهو الذى تخضع له ذرات الكون وتأنم بأمره ؟ ولا يخفف من خطر هذه الدعوى أن الخوئي يعود فيقول : . ونكى لست ذلك الإمام . ولم أبلغ هذا المقام المحمود بعده . فذلك توهم لا بغير شيئاً من فساد المبدأ . فإن أتباعه يرون فيه تلك الإمامة وينادونه بآية الله روح الله

ولم يدع نبينا محمد عليه الصلاة والسلام لنفسه هذا المقام وإنما قال
قوله القرآن :

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ) [١١ الكهف] .
(قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله) [٤٩ يونس] .
(قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً) [٢١ الجن]
(قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم)
[٩ الأحقاف]

ولم يقل بأن ذرات الكون تخضع لولايته وتدع لسيطرته . وهذا هو الفرق بين موقف السنة وموقف الشيعة . فالسنة تقف عند هذه الآيات القرآنية . ولا تريد ولا تعطي للنبي وخلفائه أكثر مما أعطاهم الله ورسله

أما الشيعة فتعطي للإمام قدسية وعصمة وربانية على الأشياء والناس . وتجعله تحسداً لروح الله . ومثل هذا الفكر يعنى سياسياً في تطبيق دكتاتورية مطلقة بكل أخطارها ومساوئها
هل تكفى هذه السطور من أقوال الخميني لإدانة الثورة الإيرانية وإدانة المبدأ الشيعي كسياسة ؟

أملك عن القول . وأترك التاريخ ليحيب . فالسؤال هذه المرة كثير من عقل . وما نعلم من خفايا اللعبة التي تجري الآن على المسرح أقل بكثير مما لا نعلم .

والله فوق كل ذى علم عليم .

المسألة والحل

الاثنين ٣٠ أغسطس شاطئ العريش :

هبات النسيم القادم من البحر تأتي ومعها السكون والراحة . . هي
الأخرى جاءت بعد مشوار طويل حول نصف الكرة الآخر بين مطبات
فواء الساخن والبارد وبين كتل المياه الساخنة والباردة من الهادي إلى
الأطلنطي إلى المتوسط فهي مثلنا في قلبنا بين تيارات الفكر بين يسار
ويمين وبين شرق وغرب . . فما أشبه إنسان العصر الحاضر ببرادة الحديد
المبعثرة تشدها أمواج المجال المغناطيسي عن يمين وشمال . . ومثلما يتحازز
الإنسان إلى هذا المجال أو ذاك تنحاز الدول وتتصاعد في أحلاف
ويتصاعد معها الموج السياسي وتتصاعد الكتل في نزاعات وحروب .
الموج المادي رأسماليا كان أو شيوعيا (ولا فرق يذكر بينهما)
فكلاهما فكر مادي يقدم وعدا بالرخاء المادي . . وذلك الموج يشد
لأغلبية في شبابه وحياته .

والموج الديني يشد القلة الباقية إلى المناهج الإهية والمثل والشرائع الربانية .

وإنسان العصر بين السابح في هذا الموج أو ذاك مهاجرا إلى أيها في اعتدال أو منكبا على وجهه في نظرف أو ممزقا بين الاثنين في حيرة .
أمريكا تغريك بالحرية . . وأنت في أمريكا حر . . تاجر اكسب . . ابتكر اخترع اسرق اقتل . اقتل حتى نفسك بالمخدرات أو اقتل الرئيس الأمريكي . ثم يفرج عنك بعذر الاخراف العقلي . افعل أى شئ . نتصور أن فيه سعادتك ورخاؤك وتلك فلسفة .

وفي روسيا من أجل الرخاء الموعود نفسه يقدمون لك فلسفة أخرى . يسلبونك فيها هذه الحرية الفردية في مقابل بطاقة أمن من الدولة وبطاقة تموين وبطاقة كساء شعبي ومجانبة تعليم ومجانبة علاج . . لا يهم بعد ذلك شكل التعليم وشكل العلاج ونوع الخضر الذي تجدد في الطابور ونوع البذلة التي تجدها في البطاقة . . والعمال في بولنده الذين لم يجدوا سوى الشعارات ثاروا ومشوا في مسيرات يرفعون صورة البابا وصورة العذراء مريم . . والشباب الأمريكي الذي وجد الحرية ولم يجد القيم مشى هو الآخر في مسيرات يطالب بالعودة إلى الشرائع الإهية .

وفي العالم الثالث ظهر شباب من كل ألوان الطيف بين أقصى اليسار

وأقصى اليمين اجتمع كل بضعة ألوف منهم حول مرشد أو زعيم أو قائد يلتمسون الحل بثورة أو انقلاب عسكري أو حركات تحت الأرض وفوق الأرض بين محدوعين أو مأجورين أو مرتزقة أو شباب مثالي متهور .

والانقلابات في الدول الأفريقية وفي دول أمريكا اللاتينية . . وفي العالم العربي . . هي خير مثال . . وهي انقلابات لا تجرى بمعزل عن قطبي المجال المغناطيسي الأمريكي والروسي ، فهي أحيانا تجرى باتفاقها . . وأحيانا بفعل الغزو الفكري لكل منها وأحيانا بتأمر طرف من وراء طرف وأحيانا كالنبت الشيطاني من تلقاء ذاتها . . وفي إيران ترفع الثورة علما إسلاميا . . ولا يعلم إلا الله ماذا يجرى تحت .

ونحن في مصر لا نعيش بعيدا عن هذا كله . . وإنما نعيش في قلب الدوامة تؤثر فيها وتؤثر فيها فصر ملتقى القارات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا وملتقى التيارات المتلاطمة بين شرق وغرب . وفي مصر تراث سبعة آلاف عام من التوحيد يعمل هو ذاته كقطب مؤثر مستقل . ولمصر صراعاها الخاص كبلد عربي مع إسرائيل .

وبعد حروب أربعة وبسبب انقسام عربي وخلافات عربية اختارت مصر أن تخطو خطوة سلام .

ولكن ما فعلته إسرائيل في لبنان وما تعلن عنه وما تبشره من عنف قد يحفز هذه الخطوة وقد يجعل المضي في السلام مستحيلا .
ولم يسأل العرب أنفسهم وهم في خلافاتهم وانقسامهم . . ماذا يكون عليه المستقبل . . وإسرائيل توشك أن تصبح قوة ذرية وحيدة في المنطقة . . وإيران قوة أخرى مهيمنة فعالة تعيد تشكيل الخريطة .
أين نحن من عالم متغير يتشكل بسرعة لا تنتظر خلافاتنا وسليباتنا .
وفي العالم ثورة علمية الكترونية تتفقم وتتضاعف بسرعة . . وفي سنوات قليلة سوف نجعل هذه الثورة الأغنياء أغنى والأقوياء أقوى والمتقدمين أكثر تقدما بما لا يقاس بالنسبة لأمثالنا من دول نامية يلقي بها التخلف مئات السنين إلى وراء . . فنصبح كالقروء بالنسبة لاجتماعات إنسانية تلهث تقدما . . هذا إذا لم نسارع فنلحق بأسباب هذه الثورة الإلكترونية العلمية . . ونحن إلى الآن لم نفعل .
كل هذه محاذير ونذر لمستقبل وشيك مجهول .
والصراع بين الثلاثي العملاق أمريكا وروسيا والصين . . هو علامة استفهام أخرى سوف تشكل الخريطة في السنوات القليلة القادمة .
هل نحن مقبلون على عصر ظلماني يصنعه الطواغيت . أم على عصر نوراني يحكمه الراشدون وورثة الأنبياء .
إن النذر تتراكم في الأفق .

وباطن الأرض يقور . .
والليالي حبلى . سوف تلدن كل عجيبة . فأين نحن من كل هذا . .
وأين انماؤنا بين المذاهب والنظم والتيارات .
وماذا أعددتنا للغد .
وما هو إسهامنا فيما يحرق .
إن القليل من زاد العلم الذي نحصل عليه في مدارسنا وجامعاتنا لا يكفي .
وهجرة الشباب لفسيل الأطباق وبيع الصحف في أوروبا ليس حلا وانتماء شباب الشارع إلى الزمالك أو الأهل نكتة سخيفة نافهة أن دلت على شيء فعل الغيبة التي نعيش فيها وسط هذا البركان الفوار من الأحداث .
وانفجارات الشباب الحماسية وجريها خلف أي حامل راية دون أعمال فكر ودون تدبير . . هو مرافقة سياسية .
واسترخاؤها على المقاهي وتناؤها أمام شاشات التلفزيون وانفاقها الساعات في نوادي الكاسيت والفيديو انتحار بطيء من نوع آخر .
والكثرة التي تتعاطى حشيش الحب تحاول أن تأخذ أجازة بأسلوب آخر مسلي .

والعالم يتغير . . . والتاريخ يتحرك بالخطوة السريعة ولا ينتظر
 المتسكعين على النواصي . . . وإن لم يشترك الشباب في صنع الحياة فهناك
 آخرون سوف يرغمونه على الحياة التي يصنعونها .
 هل يحاول شبابنا أن يعيش عصره . . . هذا العصر الذي يحتاج منه
 إلى احتشاد كامل علميا وعملا وفكرا ودينا وخلقا . . . وأن يغذى عقله
 بكل ما يجد من حقائق كما يغذى الميكرو كومبيوتر قبل أن يضغط على
 زراره ليسأله الخطوة والمنهج والطريق .
 إن العبء كبير والمسئولية كبيرة ولكن لا مفر من حملها فالتحديات
 لا تنتظر والتبعات ثقيلة .
 وعدت ببصرى إلى شاطئ العريش وإلى البحر الممتد أمامى إلى
 ما لا نهاية وإلى مستوطنات إسرائيل التي دمرتها قبل إخلائها . وإلى
 يسارى حيث البر العربى يمتد إلى الأطلسي .
 هل فكر الشباب العربى كيف جاء هؤلاء اليهود شراذم من كل
 الدول . . . جاؤا إلى هنا ليقيموا المستوطنات ويزرعوا الصحراء بالورد
 والتمر البندقية في يد والقأس في اليد الأخرى .
 هؤلاء اليهود الذين زرعوا الفتى وروجوا المخدرات ونشروا بين
 فلسفات الفوضى . . . جاءوا يقاتلون ويعملون ويزرعون ويبنون بعقل
 أوروبى وبإمكانيات أوربية .

هل تواجههم على نفس المستوى علما بعلم ، وحصارة بحضارة .
 ودهاء بدهاء . . . وعملا بعمل . . . وقتالا بقتال . . . أم سوف نخشى
 مواجههم بالشعارات والخطب والخلافات التي تنتهى لتبدأ ثم تعود
 فتنتهى لتبدأ .
 وهل أدرك الجانب الفلسطينى أن عليه أن يتوحد فيما بين نفسه قبل
 أن يسأل الأمة العربية أن تتوحد . . . وأن تجتمع منظماته على راية واحدة
 ومثل واحد ورأى واحد وطرف واحد تعطيه التمثيل والشرعية .
 وهل أدرك المتنادون بالوحدة العربية بين الدول العربية أن الوحدة
 أصبحت أحيانا مفقودة حتى في الفرد العربى الواحد الذى تمزق على
 نفسه . . . وأن الفرد العربى مطالب أولا بأن يجمع أشتات نفسه ويتوحد
 مع نفسه وفكره .
 والمتنادون بالحرب مع إسرائيل من دول الصمود والتصدى . هل
 يعلمون أنه لا توجد دولة عربية واحدة تنتج طعامها أو تنتج سلاحها .
 وأن العرب يعيشون على لقمة مستوردة وسلاح مستورد . . . والذى
 يعطى القمح والمدفع والطائرة هو الذى صنع إسرائيل وأقامها وأيدها
 واعترف بها .
 وهل يعلمون أن حوالى النصف من تعداد كل دولة عربية
 لا يعمل .

وهل يعلمون أنه لا وسيلة إلى قرار حر إلا باقتصاد حر . . . وإنا
لا يمكن أن نحارب عملا وإنتاجا إلا بعمل وإنتاج . . .
والمنادون بالإسلام كحل . . . بأي فهم فهموا الإسلام . . .
إن أكثر من رفعوا راية الإسلام كانوا يخفون تحت هذه الراية ما
لا يمت بصلة إلى الإسلام بأي سبب من أطماع وأحقاد وأهواء وأغراض
شخصية . . .
والمنادون بالإسلام تفرقوا شيعا وطعن كل واحد في إسلام الآخر
وكفر بعضهم بعضا وشهروا السلاح الذي استوردوه من أمريكا وروسيا
ليحاربوا به بعضهم بعضا . . .
وبعضهم غرقوا في الجدل حول الشكليات والمظهريات وتنازعوا
حول اللحية والسواك والشمروخ والنقاب وتقصير الثوب وراحوا
يمضغون القشور ونسوا الجوهر والروح واللباب . . .
فهل هو كلام جديد أن روح الإسلام ولبه ولبابه هو العلم والعمل
ومكارم الأخلاق أم أنه كلام قديم جدا أيام كان المسلم ينتج لقمته
بزرع يده ويصنع سيفه ويرى خيله ويدربها بنفسه . . .
إذن لم الخلاف والمسألة واضحة أم أن هناك ناسا من مصلحتهم
التعمية وتشويه الحقائق وإضاعتنا في مشكلات ثانوية ننسى فيها أنفسنا
وننسى موضوعنا . . .

وإذا استقر في وجدان الشباب أن الإسلام هو الحل وأنه هو
الطريق إلى الوحدة وإلى الجهاد السليم . . . فنحن نقول نعم . . . بشرط
أن يفهم الشباب ما الإسلام وما حقيقته . . . وأن لا يجرى وراء كل
نافخ بوق من الفرق الكثيرة الضالة التي تحترف الإسلام كلاما وتشويهه
عملا وسلوكا . . .
على كل شاب أن يفتح أذنيه جيدا ويفهم ما يلقى إليه من يمين
وشمال من زخرف الكلام وألا يكون مثل أطواف الخشب التي يلقى بها
الموج وبأخذها التيار كل مأخذ . . .
إنه . . . لقد جاء الوقت لتفريق . . . فعجلة الأحداث تجري
بسرعة . . . وعما قريب ندخل في منعطف التاريخ ونختبئ في عنق
الزحاجة إن لم نحسب لكل يوم حسابه . . .
نعم لا حل إلا حل واحد . . .
هو العلم والعمل والإنتاج ومكارم الأخلاق التي عودنا عليها
الإسلام والوحدة خلف رايته واحترام العقل وبذ التعصب والنظر إلى
كل شيء في شمول وكلية وتدبر وتفكير . . . وإقامة البنيان الذي انهار من
أساسه بالاتفاق أولا على هذه اللبئات الأولى الأساسية التي بدونها
لا يكون مانبيه إسلاما . . . وإنما هלוسة دينية تساعد أعداءنا في القضاء
علينا أسرع وأسرع . . .

